موسوعة المشاهير

موسوعة شاملة لأعلام ومشاهير الرجال والنساء فى الشرق والغرب .. قديماً وحديثاً

الكتاب الرابع

مجدى سيد عبد العزيز



موسوعة المشاهير

الكتاب الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

صدق الله العظيم



DAR AL AMEEN

طبع * نشر * توزيع

القاهرة : ١٠٠ شارع بستان الدكة من شارع الألفى (مطابع سجل العرب) تليفون : ٩٣٢٧٠٦

ص.ب : ١٣١٥ العتبة ١١٥١١

الجيزة : ٨ شارع أبو المعالى (خلف مسرح البالون) العجوزة تليفون : ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق خلف قاعة سيد درويش بالهرم

ص.ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع ٥٤٤٨/ ١٩٩٥

ISBN

977-279-007-6

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل : ٩٧)

إهـــداء ...

إلــى روح الـكــاتــب والـمـفـكــر العظيم الأستاذ الكبير : توفيق الحكيم الذى أعـجـبت تمامًا بمسـرحـيـاته الرائـعـة الحـوار . والذى حزنت كثيراً على أنه لم يفـز بنوبل رغـم ترشيحه لها !.

الفهرس

المقدمة

عندما جاءتنا فكرة تقديم هذه الطائفة الكبيرة من مشاهير التاريخ ونوابغه ، كان لنا عدة أهداف من وراء ذلك .. منها التعريف بهم .. الإحاطة بأهم نتاجاتهم .. التأسّي بالجوانب المضيئة فى حياتهم .. معرفة رحلة كفاحهم .. الاهتمام بالكتب الخاصة بالتراجم والسير .. وغير هذا .. ولكننا رمينا – بجانب ماسبق – إلى هدف أسمى وأساسى .. وهو أن تفعل أنت شيئًا .. شيئاً مفيدًانافعًا ، تتركه وراءك فى هذه الحياة ، ويكون امتداداً لذكرك .. فأنت لست أقل من أى مبدع .. مخترعًا كان أو أديبًا أو فنانًا .. حتى العباقرة ، بشر أمثالنا .. فلك عينان مثلهم ، وعقل تفكر به .. وهم لا يزيدون عليك شيئًا .. فقط اجلس وتفكّر وتأمل فى المكانة التى وصلوا إليها ، وكيف وصلوا ، وكيف تحقق لهم ذلك .

ومن أجل أن تفعل « شيئًا » ، يجب أن تحدد لك هدفًا فى الحياة .. ثم ترتفع عن الصغائر والتفاهات التى يغرق فيها معظم الناس .. وتجعل همّتك عالية سامية .. فإن الله يحب معالى الأمور ، ويكره سفاسفها .

ثم تحافظ على وقتك تمام المحافظة .. فلا ثرثرة .. ولا مناقشات عقيمة ، أو مجادلات لا طائل من ورائها ، أو مراء لا جدوى منه واعلم أن كل ساعة تمر فى حياتك هى كنز لن يتكرر أو يعوَّض .. فيجب استغلالها على أكمل وجه . واستمع جيدًا إلى قول شوقى :

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ ... إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِ
فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا ... فَالذِّكْرُ لِلإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِ

ويجب أن تتسلح في دربك الطويل هذا بالعلم والمعرفة .. فاذهب إلى الكتب .. ففيها كل شيء .. وحاول أن تتذكر شيئًا هامًا ، أنت تنساه دائمًا .. أو تتناساه .. وهو أنك إنسان .. خليفة الله في أرضه .. وفيك قبس من روح الإله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾(١) .. فأنت لست جمادًا أو نباتًا أو حيوانًا .. أنت أرقى من ذلك وأرفع .. أنت أفضل كائنات هذا الكون على الإطلاق .. ولم تأت إلى هذه الدنيا لكي تأكل وتشرب وتنام ثم تموت .. لا .. إن لك رسالة يجب أن تؤديها .. وعملاً عليك أن تنجزه .

اقرأ كلمات هذه الآية الكريمة حرفًا حرفًا ، وتدبرها في هدوء : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾(٢) .. فالحياة ليست عبثًا إذن .. ليست أيامًا نضيعها في الجرى وراء الشهوات يمينًا ويسارًا، ليلاً ونهارًا .. فكل حركة وسكنة تُسجل علينا .

ومادام هناك حساب في الآخرة ، ثوابًا كان أو عقابًا ، فلابد أن تكون هناك أعمال يقوم عليها هذا الحساب .. ولن يستوى ساعتها خامل كسول ومجتهد لا ينام .

فلتُحسِن إذًا صنعًا أيها القارئ ، حتى يحسُن جزاؤك .. وكلما كان عملك متقنًا ودائرة نفعه متّسعة ، كلما كان ذلك أفضل وأعظم .

وأنقل إليك هنا ثلاث وصايا للأستاذ خالد محمد خالد - رحمة الله عليه - يقول في الأولى منها : «**احمل روح الرواد .. وابحث عن الدروب غير المطروقة .. واجعل مناط سعيك : ما لم يفعله من قبل أحد** » . وفي الثانية : « **تقبل وجودك وطوّره .. واختر حياتك وعِشها ..**

---

(١) سورة ص آية : ٧٢ .

(٢) سورة المؤمنون آية : ١١٥ .

وابق إلى النهاية حاملاً رايتك » .. وفى الثالثة يقول : « وطد مسئوليتك بالحرية .. وحصّن حياتك بالعدل .. واترك للوجود شذاك » .

لعلك الآن قد أدركت هدفنا من وراء هذا الكتاب وأسلافه .. ولعل الكلمات السابقة تكون قد ألقت فى روعك أن تترك الكسل والخمول والإهمال جانبًا ، وتسرع إلى الكد والاجتهاد ، والصبر والمثابرة مثلما فعلت الشخصيات التى احتوتها صفحات هذا الكتاب ، والكتب السابقة .

أيها القارئ .. افعل شيئًا .. لنفسك .. ولأولادك .. ولمجتمعك .

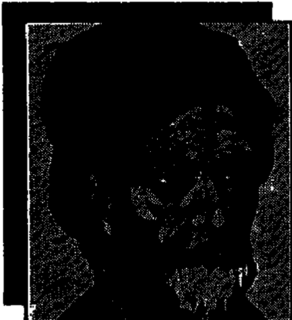
مجدى سيد عبد العزيز

مدينة ١٥ مايو

يناير ١٩٩٦

« تاريخ حياة الناس ..
هو أصدق التواريخ »

توماس كارليل



الفارابى

(٨٧٠- ٩٥٠)

المعلم الثانى

- سُئل ذات مرة : « من أعلم .. أنت أم أرسطو؟ » فقال : «لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه » .. وقال عنه أحد المستشرقين : « إنه مؤسس الفلسفة العربية » .. وقال غيره : « إنه أفهم فلاسفة الإسلام وأذكرهم للعلوم القديمة » .. وقال ثالث : « ليس شىء مما يوجد فى فلسفة ابن سينا وابن رشد إلا وبذوره موجودة عنده » .. وقال عنه ابن خلكان : « إنه لم يكن فى فلاسفة الإسلام من بلغ رتبته فى فنونه ، وإن ابن سينا بكتبه تخرّج ، وبكلامه انتفع فى تصانيفه» .

وكان كتّاب العرب يعدونه أكبر العلماء بعد أرسطو .. ولما كانوا يطلقون على أرسطو اسم « المعلّم الأول » ، فقد أطلقوا على الفارابى اسم « المعلم الثانى » .

اشتهر بشروحه وتعليقاته على فلسفة المعلم الأول ، وألّف طائفة من الكتب والرسائل أوضح فيها فلسفته الخاصة ، ضاع معظمها ، وتُرجم بعضها ، ولا يزال الباقى فى عِداد المخطوطات .

وبجانب كونه فيلسوفًا فقد كانت له فوق ذلك معرفة بالطب ومواهب بارزة فى الموسيقى ، علمًا وفنًا .. كما كان مولعًا بالأسفار والترحال ، حيث زار العراق وحلب ودمشق ومصر أيضًا .

إنه الفارابى .

أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى .. فاسمه إذن محمد .. وكنيته أبو نصر .. وشهرته الفارابى .. ولقبه المُعلّم الثانى .

ولا ندرى كيف كنى بأبى نصر ، مع أنه قد جرت العادة فى الغالب أن يُكنى الشخص باسم ابنه الأكبر ، والمشهور من سيرة الفارابى أنه لم يتزوج ولم ينجب أولاداً ..

أما شهرته بالفارابى فنسبة إلى مسقط رأسه « فاراب » ، حيث ولد ببلدة فيها تسمى « وسيج » ، من بلاد الترك فيما وراء النهر .. فهو إذن تركىّ الأصل .. وكان مولده عام ٢٥٩هـ - ٨٧٠م .

أما لقبه المُعلّم الثانى ، فالرّاجح أن السبب فى تلقيبه إياه يرجع إلى مكانته الكبيرة فى الفلسفة ، ووفرة إنتاجه فيها ، ومتابعته لدراسات أرسطو ، وشرحه لنظرياته ، حتى لقد اعتُبر أكبر الفلاسفة من بعده ، وأعظم ناشر وموضح لآرائه .. فهما أكبر مُعَلّمين فى تاريخ الفلسفة .. ويُذكر أن أباه كان قائداً من قواد الجيش .

ولا نعرف شيئًا يقينيًا عن طفولته الأولى .. أما فيما يتعلّق بالمراحل التالية فيظهر من سيرته أنه بعد بلوغه دور التعلم قد عكف فى مسقط رأسه على دراسة طائفة من مواد العلوم والرياضة والآداب والفلسفة واللغات وعلى الأخص التركية ، وهى لغته الأصلية ، والفارسية واليونانية والعربية .. وكانت ثقافته فى أساسها دينية لغوية ، فأقبل على العلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير .. وقد اشتغل بالقضاء زمنًا .

ثم خرج من بلده حوالى عام ٩٢٠م ، وهو يومئذ يناهز الخمسين ، قاصداً العراق ، حيث أتم دراساته فيما بدأ به فى مسقط رأسه وأضاف إليها مواد أخرى كثيرة .. فدرس فى حرّان الفلسفة والمنطق والطب على الطبيب المنطقى

المسيحى « يوحنا بن حيلان » ، ودرس فى بغداد الفلسفة والمنطق على « متى بن يونس » ، وهو مسيحى نسطورى كان حينئذ من أشهر مترجمى الكتب اليونانية ومن أشهر الباحثين فى المنطق ، ودرس فى بغداد كذلك العلوم اللسانية العربية على « ابن السراج » ، وأتيح له فيهاأيضًا دراسة الموسيقى وإتمام دراساته فى اللغات والطب والعلوم والرياضيات .. ولا غرابة أن يتتلمذ فى هذه السن المتقدمة ، فقد كان هذا دأب العلماء فى هذه العصور .. يطلبون العلم من المهد إلى اللحد .

وفى بغداد قابل عددًا آخر من الفلاسفة والمترجمين وكبار المناطقة أمثال الكِندى والرازى .. وكان الفارابىّ مولعًا بالأسفار فى طلب العلم ونشره والإحاطة بشئون الجماعات ، فبعد أن قضى عشرين عامًا فى بغداد رحل إلى الشام حيث اتصل بسيف الدولة الحمدانى ، الذى عرف له فضله ، وأكرم وفادته، وعاش فى كنفه منقطعًا إلى التعليم والتأليف .. وكانت حلَب - عاصمة الحمدانيين - فى ذلك الوقت إحدى المراكز الثقافية ومن أرقى البيئات العلمية ، حيث الشعراء - خاصة المتنبى - والعلماء والفلاسفة ، وعلماء اللغة كذلك .. وكان بلاط سيف الدولة يجمع بين هؤلاء جميعًا .

وكان فى أثناء إقامته بالشام يتنقل بين مدنها ، وخاصة حلب العاصمة ودمشق .. وقد سافر مرة من الشام إلى مصر فى السنوات الأخيرة من حياته ، أيام الدولة الطولونية والإخشيدية ، حيث ازدهرت حركة فكرية تجذب العلماء والفلاسفة من كل حَدب وصوب .. ثم رجع إلى دمشق حيث توفى بها عام ٣٣٩هـ - ٩٥٠م ، وصلّى عليه سيف الدولة مع خمسة عشر رجلاً من خاصته .

وقد آثر الفارابى حياة الزهد والتقشف ، فلم يتزوج ، ولم يقتن مالاً ، ولم يشأ أن يتناول من سيف الدولة إلا أربعة دراهم فضّية فى اليوم ! - كما يذكر كثير من الرواة - ينفقها فيما يحتاج إليه من ضروريات العيش .. وقد اكتفى

بذلك قناعة منه ، وكان فى استطاعته وهو الأثير عند الملك الجوّاد سيف الدولة ابن حمدان أن يكتنز الذهب والفضة ويقتنى الضياع .

وكان يؤثر العزلة والوحدة ليخلو إلى التأمل والتفكير .. وكان طوال مدة إقامته بدمشق يقضى معظم أوقاته فى البساتين وعلى شواطئ الأنهار ، حيث يؤلف بحوثه ويقصد إليه تلاميذه وزملاؤه ومساعدوه ..

وليس من شك فى أن الفلسفة بمعناها الواسع الذى كان مستخدمًا فى ذلك العصر أى « العلم الجامع الذى يضع أمامنا صورة شاملة للكون » ، وكانت أوضح ناحية من نواحى نبوغ الفارابى ومظهر من مظاهر ألمعيته وتخصصه ، فمعظم جهوده كانت متجهة إلى تجويد بحوثها ، وخاصة ما تعلق منها بالفلسفة اليونانية .. وقد استأثرت فلسفة أرسطو ومؤلفاته بقسط كبير من نشاطه ، حتى إن ابن خلكان يروى فى كتابه « وفيات الأعيان » أنه قد وجد « كتاب النفس » لأرسطو وعليه بخط يد الفارابى أنه كان يقول : « قرأت كتاب السماع الطبيعى لـ « لأرسطو الحكيم » أربعين مرة ، وأرى أننى محتاج إلى معاودة قراءته » .

وقد طبقت شهرته الآفاق فى مواد الفلسفة ، واعتبر أكبر الفلاسفة بعد أرسطو وأعظم ناشر وموضح لآرائه .

ويُذكر أن سبب اتجاهه للحكمة – أى الفلسفة – أن رجلاً أودع عنده جملة من كتب أرسطو فاتفق أن نظر فيها ، فوافقت منه قبولاً ، وتحرك إلى قراءتها ، ولم يزل إلى أن أتقن فهمها وصار فيلسوفًا .

ويعتبر الفارابى المؤسّس الحقيقى للدراسات الفلسفية فى العالم العربى ، والمنشىء الأول لما نسميّه الآن « الفلسفة الإسلامية » ، فقد أشاد بنيانها ، ووضع الأساس لجميع فروعها ، ولا نكاد نجد فكرة عند من جاءوا بعده من فلاسفة الإسلام إلا لها أصل لديه .. وهو أعرف فلاسفة الإسلام بتاريخ الفلسفة

ونظريات الفلاسفة ، فهو يتحدث فى مؤلفاته حديث الخبير عن المدارس اليونانية ويبين الفوارق بينها .

والفارابى ينحو منحى توفيقياً فى فلسفته ، فهو يوفق بين أفلاطون وأرسطو وبين الفلسفة والدين .

ففى كتابه « الجمع بين رأيى الحكيمين » لا يرى الفارابى تفاوتاً مطلقاً بين أفلاطون وأرسطو فالكل يعترف بفضل الرجلين على التساوى ، وهما فى منزلة واحدة من المعرفة .. وفى رأيه أن العلماء ظنوهما مختلفين ، والواقع أن هذا الخلاف مقصور على الظاهر دون الجوهر ، فأرسطو وأفلاطون متفقان فى أصول الفلسفة وفى مقاصدهاوأغراضها .

وأما بالنسبة لتوفيقه بين الفلسفة والشريعة أو الدّين ، فهو يبنى توفيقه بينهما على أساسين اثنين ، يذهب فى أحدهما إلى أن الشريعة والحكمة ترجعان إلى أصل واحد ، فمرد الشريعة إلى الوحى ، والوحى من الله تعالى . ومرد الفلسفة إلى الطبيعة ، والطبيعة من صنع الله .

ويذهب فى الثانى إلى أن النبى والفيلسوف يستمدان المعرفة من ينبوع العلم الإلهى .. يتلقاه النبى بواسطة جبريل حامل الوحى إليه .. ويستمده الفيلسوف من العقل الفعّال وهو أسمى العقول .. والفرق الظاهر بينهما يعود إلى أن النبى يتلقّى الحقائق متجلية بصورها وأشكالها .. أما الفيلسوف فهو يستخرج الحقائق من قرائنها بالاستنتاج والاستدلال ، فيأخذها مجرّدة عن الملابسات المادية .

وقد اهتم الفلاسفة الذين أتوا بعد الفارابى بقضية التوفيق بين الدّين والفلسفة أكثر منه ، فقد وضع هو بعضاً من معالمها ، ولا يُعرف له بحث خاص أثبت فيه التوفيق بينهما بطريقة حصرية ، غير أن معظم القضايا التى عالجها فى فلسفته إنما هى تحقيق لهذا الميل التوفيقى الذى نراه بنوع خاص فى

كتابه : « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، حيث أوضح أن رئيس المدينة ينبغى أن يكون فيلسوفًا ونبيًا معًا .

ولا تقل شهرته فى شئون السياسة والاجتماع عن شهرته فى شئون الفلسفة .. بل إن شئون السياسة والاجتماع كانت من أبرز مسائل الفلسفة من فجر نشأتها على يد سقراط وأفلاطون وأرسطو ، ومن أجل ذلك استأثرت هذه الشئون بقسط كبير من نشاط الفارابى ، وبرز فى علاج مسائلها ، وألف فيها عدة كتب أهمها « آراء أهل المدينة الفاضلة » .

وقد بلغت شهرته فى إجادة عدد كبير من اللغات الأجنبية درجة منقطعة النظير ، فكان متمكنًا من معظم لغات الكتابة والحديث السائدة فى عصره كالفارسية واليونانية والعربية .. وقد وصل فى إحاطته باللغة العربية – وهى لغته غير الأصلية – أنه كان ينظم بها الشعر ، وقد رُوى له شعر كثير تغلب على معظمه أساليب الفلاسفة والرياضيين .

وكان له معرفة واسعة بالطب ، وذكر المؤرخون أنه زاول مهنة الطب مزاولة عملية ، ولكن الراجح أنه لم يزاولها بالفعل ، وإنما اكتفى بدراسة الفن نفسه والوقوف على مختلف فروعه .

وكان نابغة عصره فى الموسيقى ، وله فيها مؤلَّف شهير هو « كتاب الموسيقى الكبير » .. ويذهب ابن خلكان إلى أنه المخترع للآلة الموسيقية المسمّاة « القانون » وأنه أول من ركبها هذا التركيب ، ويذهب آخرون إلى أنه اخترع آلة « العود » .

ويروى ابن خلكان فى هذا الصدد حكاية أدنى إلى الأساطير منها إلى الواقع ، ولكنها تنبئ عما كان قد اشتهر به الفارابى بين مواطنيه من نبوغ فى فنون الموسيقى ، فيذكر أن الفارابى فى أحد مجالسه مع سيف الدولة لم يعجبه عزف العازفين الذين عزفوا أمامه ، وأظهر أخطاء فنية كثيرة لكل واحد منهم ،

فـتـعـجب سـيف الدولة من ذلك وسـأله إن كـان يحسن هذه الفنون ، فـأجـاب بالإيجاب ، ثم أخرج آلة كانت معه ، بها عيدان ، وركّبها ثم عزف بها فضحك كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وغيّر تركيبها وضرب بها ضرباً آخر فنام كل من كان فى المجلس ، حتى الحارس .. فتركهم نياماً وخرج !

ويذكر أحد المؤرخين أن الفارابى كان فى شبابه يضرب بالعود ويغنى ، فلما التحى وجهه - أى صارت له لحية - قال : « كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يُستظرف » فترك ذلك وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة فقرأهما قراءة رجل عالم متفهّم ، حتى نبغ فيهما .

أما مؤلّفات الفارابى فهى كثيرة جداً ، ولكن لم يصل إلينا من هذه المؤلفات إلا أربعون رسالة .. منها اثنتان وثلاثون رسالة وصلت إلينا فى أصلها العربى ، وست رسائل وصلت إلينا مترجمة إلى العبرية ، ورسالتان وصلتا إلينا مترجمتين إلى اللاتينية .

وقد ترجمت كتبه إلى عدة لغات .. ويمتاز أسلوبه بالدقة والتركيز ، يحاول فى جمل مختصرة أن يؤدى أغزر المعانِي .. إنه أسلوب خاص يمقت التكرار والترادف ، ويؤثر الإيجاز والاختصار .. غير أن لغته أحياناً ما يكتنفها التعقيد والغموض ، إذ كان يحاول تقليد الأساليب الأجنبية التى كان يرجع إليها فى الفلسفة ، ثم إنه كان يرى أن الفلسفة لا يجب أن يشتغل بها العامة والدهماء ، بل المتخصصين فقط .

أما مؤلفات الفارابى التى شرح فيها كتب أرسطو فهى :

كتاب القياس (ويسمى أنالوطيقا الأولى) - كتاب البرهان (ويسمى أنالوطيقا الثانية) - كتاب الجدل - كتاب العبارة - كتاب المقولات العشر - كتاب المغالطة - كتاب الخطابة - كتاب

السماع الطبيعى - كتاب السماء والعوالم - كتاب الآثار العلوية - كتاب السفسطة - كتاب الشعر - كتاب العلم الطبيعىّ - كتاب الأخلاق - رسالة فى النفس والعالم .

ووصلت إلينا بعض مصنفات له يعلّق فيها على كتب أخرى منها شرحه علـى « **مقالة النفس** » للإسكندر الأفروديسى ، وتعليقه على كتاب « **المجسطى** » فى علم الفلك لكلاوديوس بطليموس .

وشرح كتاب « **إيساغوجى** » لفرفريوس فى المنطق ، وشرح المقالتين الأولى والخامسة من كتاب « **إقليدس** » فى الهندسة ، وكتاب « **النواميس** » لأفلاطون .

أما مؤلفات الفارابى التى أودع بها فلسفته وآراءه الخاصة به فهى :

كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة - كتاب إحصاء العلوم - كتاب الموسيقى الكبير - كتاب المختص فى المنطق - كتاب الألفاظ والحروف - كتاب السياسة المدنية - كتاب الخطابة - كتاب المدخل إلى علم المنطق - كتاب المقاييس - كتاب مختصر الفلسفة - كلام فى معنى الفلسفة - كتاب فى المدخل إلى الهندسة الوهمية - كلام فى الشعر والقوافى - كلام فى حركة الفلك - مقالة فى صناعة الكيمياء - كلام فى الجوهر - كتاب فى الرد على جالينوس فيما تأوله من كلام أرسطو - كتاب فى الرد على الرازى فى العلم الإلهى - كتاب فى إحصاء الإيقاع - كلام فى الموسيقى - كتاب الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون وأرسطو - كتاب الواحد والوحدة - كتاب الزمان - كتاب المكان - كتاب الخلاء - مقالة فى معانى العقل - عيون المسائل - فصوص الحكم - كتاب التنبيه على سبيل السعادة -

رسالة فى إثبات المفارقات - رسالة العقل - رسالة فى فضيلة العلوم والصناعات .

وأكثر الكتب التى ألَّفها الفارابى ، إما أنها فُقدت أو أنها لا تزال فى الخزائن والمكتبات تنتظر التحقيق والترجمة .

وبرغم أهمية شروح ومؤلفات الفارابى إلا أن هناك ثلاثة مؤلَّفات منها تحتل مكان الصدارة ولها أهمية عظيمة .. هى : كتاب إحصاء العلوم - كتاب الموسيقى الكبير - كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة .

فأما كتاب « إحصاء العلوم » ، فقيل عنه : إنه كتاب قيم شريف فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، لم يسبقه إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء إليه وتقديم النظر فيه ..

وقد قسَّم الفارابى فى هذا الكتاب العلوم ثمان مجموعات ، درسها فى خمسة فصول ، وعرض لكل مجموعة منها فذكر فروعها وموضوع كل فرع منها وأغراضه ووجوده والانتفاع به وما إلى ذلك .

المجموعة الأولى « مجموعة علوم اللسان » : وهى سبعة أجزاء عظمى : علم الألفاظ المفردة ، وعلم الألفاظ المركبة ، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة ، وعلم قوانين الألفاظ عندما تركب ، وعلم قوانين تصحيح الكتابة ، وعلم قوانين تصحيح القراءة ، وعلم قوانين الأشعار .

والمجموعة الثانية « علم المنطق » بجميع فروعه .. والثالثة « علم التعاليم » ، فأراد به ما يشمل ، علم العدد ، وعلم الهندسة ، وعلم المناظر (البصريات) ، وعلم النجوم (الفلك) ، وعلم الموسيقى ، وعلم الأثقال (الذى ينظر فى الأثقال وفى الآلات التى تستخدم فى رفع الأشياء الثقيلة ونقلها من مكان إلى آخر) . وعلم العدد ، وعلم الحِيَل (أى الميكانيكا التطبيقية) .

والرابعة « **مجموعة العلوم الطبيعية** » .. والخامسة « **مجموعة العلوم الإلهية** » .. والسادسة « **مجموعة العلوم المدنية** » (الأخلاق والسياسة) .. والسابعة « **علوم الفقه** » .. والمجموعة الثامنة والأخيرة « **علم الكلام** » .. (علم التوحيد وملحقاته) .. ويدل كتابه هذا على مدى تمكنه من مختلف فروع المعرفة السائدة فى عصره ، فقد عرض كل فرع من هذه الفروع عرض الخبير بحقائقه ، الملم بما وصل إليه الباحثون فى مختلف مسائله .

وأما « **كتاب الموسيقى الكبير** » ، فيعد بحق أعظم مؤلف فى علم الموسيقى وضعه العرب منذ فجر الإسلام إلى وقتنا هذا .. ويعد من شوامخ الكتب العربية فى الموسيقى ، لم يسبقه إليه أحد قبله ولم يزد عليه من تأخر من العرب القدماء ، فقد جاء هذا المؤلف شاملاً مستوفيًا لجميع أنحاء الصناعة النظرية والعملية ، وهو مخطوط ضخم له شهرة عالمية فى الأوساط التى تعنى بدراسة الموسيقى العربية نظرًا لغزارة مادته وقوة أسلوبه والمذهب المتفرد الذى سلكه المؤلف فى تصنيفه ..

وقد تكلم فيه عن أصناف الألحان وغاياتها ونشأتها ، والآلات الموسيقية وأنواعها ، والنغم والإيقاع ، وأصول صناعة الموسيقى والاشتغال بها ، وغير ذلك .

وأما كتابه « **آراء أهل المدينة الفاضلة** » فهو أعظم كتبه على الإطلاق ، ويعد خلاصة تفكيره الفلسفىّ .. والاجتماعىّ ، وقد كتبه بعد أن أربى على السبعين من عمره .. أراد فيه أن يُنشئ مجتمعًا فاضلاً أو فردوسًا أرضيًا تُدرك فيه العدالة والسعادة ، تمامًا مثلما أراد أفلاطون فى جمهوريته .

وفى هذا الكتاب يحدد الفارابى المدينة الفاضلة بأنها « هى التى يُقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التى تنال بها السعادة الحقيقية » ،

فهو إذًا يضع لها أساسين واضحين : مبدأ التعاون ، وغاية السعادة .. والتعاون إما فكرىّ يؤدى إلى تفهُّم الله والوجود .. وإما عملىّ يؤدى إلى ممارسة الفضيلة وعمل الخير .

وهذه المدينة عنده شبيهة بجسم الإنسان ، يتعاون أعضاؤه كلها على تتميم الحياة وعلى حفظها .. ثم يبحث فى أسباب خلق المجتمع أو نشأته .. ويبين أن المجتماعات البشرية نوعان : كاملة وناقصة .. فالكاملة ثلاث : **الأكبر** وهو المعمورة بكاملها ، **والأوسط** وهو اجتماع أمة فى جزء من الأرض ، **والأصغر** وهو اجتماع أهل المدينة فى جزء من الأمة .

والناقصة أربعة هى : القرية ، والمحلة ، والسكة والمنزل ..

أما رئيس المدينة فهو بمثابة القلب من البدن ، وعليه أن يمتاز بخاصيتين : كمال العقل وقوة المتخيلة ، وكمال العقل يظهر فى قوة الإدراك ، والسمو حتى يصير عقلاً مستفادًا ، وعندها يدرك كل المجردات ويصبح فيلسوفًا .. أما قوة المتخيلة فتكون قوية بحيث يدرك الرئيس المحسوسات والمعقولات .

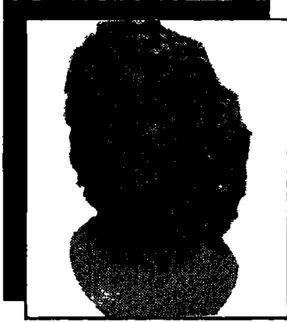
ولا يكتفى الفارابى بجعل رئيس المدينة نبيًا وفيلسوفًا معًا ، وإنما يضفى عليه صفات محدودة ، ويحلّيه باثنتى عشرة خصلة ، هى : سليم البدن ، جيد الفهم والفطنة ، جيد التصور ، حسن العبارة ، محب للتعليم ، غير شَرِه ، محب للصدق ، غير صعب القيادة ، وغير لجوج فى العدل ، قوى العزيمة ، جسور ، مؤاتٍ لكل ما يراه حَسَنًا وجميلاً .

وإذا تعذَّر وجود هذه الصفات كلها فى رجل واحد ، ووجدت فى اثنين ، فليكونا حاكمين معًا ، أو فى ثلاثة فليحكموا جميعًا ، على شرط أن تكون الحكمة فى شخص واحد ، فإن خلت المدينة من الفلاسفة غمرها الجهل وآذنت بالانهيار .

أما سكّان المدينة - فى رأى الفارابى - فينبغى أن يكون أعضاؤها عاملين خاضعين ، منظمين بحسب كفاءاتهم ، وقد اشترط فى السكان الإلمام بطائفة من المعرفة .. ولن تتحقق سعادتهم ولن تصبح مدينتهم فاضلة إلا إذا ساروا على نهج رئيسهم وأصبحوا صورة منه ، وإن الرئيس لا يعد مؤدياً رسالته إلا إذا وصل بهم إلى هذا المستوى الرّفيع .

ثم يتحدّث الفارابى بعد ذلك عن مضادات المدينة الفاضلة ، فإذا تفككت أواصر المدينة الفاضلة وزالت الحكمة عنها ، نشأت مدن عديدة مضادة للمدينة المثلى منها : **المدينة الجاهلة** ، وهى التى لن يدرك أهلها السعادة الحقيقة فانشغلوا بشئون الجسد .. **والمدينة الفاسقة** ، وهى التى عرف أهلها الحقيقة وأقروا بوجود الله ، ولكنّهم لم يطبقوا معتقداتهم على أعمالهم .. **والمدينة المتبدّلة** ، التى كانت فاضلة ثم أصابها الضلال .. **والمدينة الضالة** ، التى يرأسها رئيس ضال مخادع يوهم الناس أنه صاحب وحى ، ومن أهم خصائص المدن المضادة سنّة تنازع البقاء ، ذلك أن أهل المدينة الجاهلة هذه أشبه بجماعة الوحش ، يسطو قويهم على ضعيفهم ، والبقاء فيهم لصاحب الغَلَبَة .





الإسكندر الأكبر

(٣٥٦- ٣٢٣ق . م)

شاب يغزو العالم

- ثلاثة وثلاثون عامًا فقط هو عمر هذه العبقرية الفذّة !

إنه الإسكندر الأكبر ، تلميذ أرسطو ، وأعظم قائد عسكرى عرفه العالم قبل الميلاد وبعده . . التقى يومًا مع صديقه « ديو جينيس » أحد الفلاسفة الذين تخرّجوا فى مدرسة سقراط الفلسفية ، والذى أقام فلسفته على البساطة والحرية والطمأنينة . . فسأله الفيلسوف :

- ما هى أعظم أمنياتك فى الوقت الحاضر ؟.

- أجاب الإسكندر : إخضاع بلاد اليونان .

- ثم ماذا ؟

- إخضاع آسيا .

- ثم ماذا ؟

- أهدأ وأستريح وأمتع نفسى .

- فقال له ديوجينيس : ولم لا تهدأ أو تستريح وتمتع نفسك الآن ؟! .

وقد قال الإسكندر أيضًا فى حديثه مع هذا الفيلسوف : « إنه لا تشرق على الأرض إلا شمس واحدة فلا يمكن أن يكون لها إلا سيد واحد » . . يقصد نفسه طبعًا !! .

وكان « فيليب » ملك مقدونيا ووالد الإسكندر ، قد التقى بـ« أوليمبيا » والدة الإسكندر ، أول ما التقيا فى معبد « كابيرى » بمدينة طيبة اليونانية ، إذ يروى أنها كانت شديدة التدين . . وقد طلب فيليب يدها من ملك المدينة الذى خلف أباها على العرش ، واستشاروا الآلهة فى هذا الزواج .

وقبل زفاف أوليمبيا بيوم واحد ، رأت فى المنام أن صاعقة نزلت على جسمها فأصبح شعلة من النار ! . فلما أفاقت من حلمها فسرته بأن الصاعقة لم تكن إلا مظهراً لعناية « زيوس » – كبير الآلهة فى معتقداتهم الوثنية – بأمر الخلف الذى سوف يجيئها من هذا الزواج .

وبعد الزفاف بليلة واحدة ، رأى فيليب فى المنام أيضاً أنه طبع على جسم زوجته بخاتم منقوش عليه رسم أسد ! .

وفى الصباح استدعى عرّاف القصر ، الذى قال له إن لهذا الحلم دلالة خطيرة ، فإن الإنسان لا يختم شيئًا فارغًا ، فلابد أن تكون أوليمبيا قد حملت ، وأن ولدها سيكون فى الشجاعة والبأس كالأسد ! . . وقد ربطت أوليمبيا بين حلمها وحلم زوجها ، واعتقدت أن حملها هذا ليس من فيليب وإنما من الآلهة نفسها ! وكان هذا شائعًا فى معتقداتهم – وصارحت بذلك زوجها .

فلما رسخ هذا الاعتقاد فى نفس فيليب ، وقعت القطيعة بينه وبين زوجته بعد الزفاف بفترة قصيرة ، وعرف الناس سبب هذه القطيعة ، فأخذوا يتحدثون بها ويترقبون مولد هذا الابن ذى الشأن العجيب . . وفى منتصف ليلة من ليالى الخريف العاصفة الماطرة ، من شهر أكتوبر عام ٣٥٦ قبل الميلاد ، وضعت أوليمبيا ابنها الذى سمته الإسكندر فى مدينة « بيلا » ، Pella ، عاصمة مملكة فيليب الذى كان بعيداً عنها ، ولم يشهد مولد ابنه هذا ، ولما أن جاءه البشير بالنبأ ، علم فيليب أيضًا بأن أحد قواده ويدعى « بارمينون » قد أوقع

شر الهزائم بأهل مدينة « إبيليريا » التى كان قد سار إليها . . وأن مستعمرة « بوتيديا » اليونانية سلمت نفسها إليه . . وعلم كذلك أن جواده قد فاز فى أحد السباقات الهامة . . وقد أجمع المنجمون على أن مجىء هذه البشريات الثلاث مع مولد الإسكندر لهو دليل لا شك فيه على أن مستقبل الوليد سيكون باهرًا ونجمه متألقًا .

وهكذا لعبت الأساطير والروايات دورًا لا بأس به حول ميلاد الإسكندر .

وفى عاميه الأولين ، نشأ فى عناية أمه ، تصرِّف أمره كيفما تشاء دون أن تسأل أباه أو يسألها شيئًا ، بل دون أن يعنى فيليب حتى بأن يرى وليده ويداعبه ، كما يفعل الآباء ، فقد كان شغله الشاغل إذ ذاك جيشه الجديد ، وما عسى أن يبلغ به من فتوح ويغزو من بلدان .

واختارت أوليمبيا لابنها امرأة نبيلة لترضعه ، تدعى « هيلانة » لازمته حتى بلغ من العمر ست سنوات ، بعد ذلك عُهد به إلى مرب خاص ، كسائر أبناء النبلاء ليتولَّى أمره . . وكان المربِّى الذى وقع عليه اختيار فيليب رجلاً طيبًا يدعى « ليزيماكوس » ، وينحدر من أسرة نبيلة ، ولكن هذا الاختيار لم يُعجب أوليمبيا ، فعينت إلى جانبه قريبًا لها يُدعى « ليونيداس » ، وجعلت له سلطانًا أقوى من سلطان الأول .

وإذا كان ليزيماكوس قد حل على وفاء نادر للإسكندر إلى آخر حياته ، فإن ليونيداس قد طبع تلميذه بطابع لم يفارقه قط ، وهو طابع الخشونة والرجولة والقصد فى كل شىء . . حتى لقد كتب عنه الإسكندر فيما بعد يقول : « كان من عادة هذا الرجل أن يفتح الصناديق التى كنت أحفظ فيها أغطيتى وملابسى ويفحصها ليطمئن إلى أن أمى لم تعطنى شيئًا لا تمس الحاجة إليه ، ولم تزودنى بشىء يؤدى إلى الشهوانية والانغماس فى اللذات » .

ويروى « بلوتارك » - أحد المؤرخين وكُتّاب السير القدماء - أن ليونيداس كان حريصًا على أن ينشئ الإسكندر على الاقتصاد فى كل شىء ، حتى لقد رآه يومًا فى احتفال دينى يُلقى بأعواد الطيب فى النار ، لكى تفوح رائحتها العطرة ، من غير حساب ، فأنبه تأنيبًا شديدًا ولفته إلى أن الإسراف معيب حتى فى هذا المقام ! . . ومضت خمسة أعوام أخرى من حياة الإسكندر ، لم يقع له فيها شىء يستحق الذكر . . حتى إذا بلغ العام الثانى عشر لفت إليه نظر والده ، واسترعى اهتمامه واهتمام الكثيرين ، وذلك فى مناسبة مشهورة رواها أيضًا بلوتارك .

وذلك أن تاجرًا معروفًا من تجار الجياد جاء من إحدى المدن ليعرض على فيليب أحد الجياد النادرة ، وطلب ثمنًا له يتراوح بين ما يعادل ثلاثة آلاف وأربعة آلاف من الجنيهات! ، وهو ثمن غال يدل على ندرة الجواد وجماله . . فلما جىء بالجواد إلى الحلبة لتجربته أمام فيليب ، أظهر من الجموح ما خيب الآمال . . وتردد الملك فى قبول الجواد ، وأشار بإعادته إلى التاجر ، ولكن الإسكندر احتج على ذلك ، وقال لوالده إنه لمن العار أن يضيع من يديه جواد بديع كهذا لا لسبب سوى أنه لا يوجد بين الحاضرين من أوتى من المهارة والشجاعة ما يمكنه من اعتلاء الجواد وكبح جماحه .

ولم يلتفت إلى كلام ابنه الصغير ، وكأنه استنكر عليه أن يبدى رأيه وسط من هم أكبر منه وأقدر على ترويض الجواد . . ولكن الإسكندر قال لوالده أمام الجميع : « إننى أستطيع بالفعل أن أروّض هذا الجواد الذى أعجزكم جميعًا » .

فضحك فيليب وأجابه قائلاً : « حسن جدًا . . إذن فلتحاول . . ولكن إذا ما فشلت ، فأى جزاء تنال إزاء طيشك » . فأجاب الإسكندر : « إذا أخفقت كان على أن أدفع ثمن الجواد كاملاً » .

وأسرع الإسكندر فى شجاعة فائقة إلى السائس فتناول منه العنان ، ثم أدار الجواد بحيث يواجه الشمس ، إذ خطر له أن من أسباب اضطرابه رؤية خياله يتحرك أمامه على الأرض ، ثم أخذ يعدو إلى جانب الجواد ، وقد أمسك العنان بإحدى يديه وراح يربت على عنقه باليد الأخرى ، حتى لاحت له الفرصة فأسقط عباءته واعتلى صهوة الجواد ، وسرعان ما أطبق عليه بركبتيه ، وظل يربت على عنقه ، حتى اطمأن الحصان إليه ، فعندئذ أطلق له العنان فمضى كالسهم . . كل هذا وأبوه فيليب ومن حوله يحبسون أنفاسهم ويرقبون هذا الغلام الجرىء ، وهم فى خوف من أن يدق عنقه فى أية لحظة . . ولم تهدأ نفوسهم حتى رآه يدور بالجواد المتعب فى سهولة ويسر ، ويعود إليهم ثم يترجل تاركًا الجواد ، فاستقبلوه بهتافات اهتزت لها نفس الملك ، الذى فرح بابنه فأقبل عليه وقال له : « عليك أن تشق طريقك يا بنى إلى حيث تخلق لنفسك ملكًا أنت به جدير ، فإن مقدونيا لأضيق من أن تتسع أمام همتك القعساء » ! .

وبعد هذا الحادث ، بدأ فيليب يهتم بابنه ، ويلاحظ تصرفاته وسماته . . فقد عرف أن الإسكندر بارع فى ركوب الخيل ، سبَّاقًا فى العدو ، ماهرًا فى المبارزة . . كما كان بفضل معلمه ليونيداس شديد الجلد على المشى الطويل المدى ، وكانت خطواته واسعة ، بسبب اعتياد مربيه المشى الطويل . . ولكن لاحظ أيضًا أن ابنه كثير النزوع إلى انتقاد سواه ، وأنه يظن نفسه أوفر علمًا من الذين يكبرونه ، وأن روح الدعابة تكاد تنعدم عنده .

وبجانب ذلك ، كان الإسكندر عاطفيًا مرهف الحس ، ولوعًا بالشعر والموسيقى الهادئة الرقيقة ، وكان بالرغم من بنيته القوية المفتولة العضلات ، ذا بشرة بيضاء ناعمة ، ووجه جميل وسيم . . ورأى فيليب أن يعهد بتربية ابنه - وقد بلغ الثالثة عشرة - إلى مرب تتوفر فيه صفات أربع أساسية . . الأولى : أن يكون رجلاً عمليًا ينظر إلى الحقائق ويعطيها قدرها دون أن يحسب حسابًا

للأوهام والأحلام . . والثانية : أن يكون رجل مجتمع لا ينفر من فرح الحياة الاجتماعية ومسراتها كما ينفر ليونيداس . . والثالثة : أن يجمع بين الثقافة الاثينية التى كان يعجب بها فيليب أشد الإعجاب ، وبين روح الرجولة المقدونية التى يريد أن يغرسها فى نفس ولى عهده . . والرابعة : أن يكون المربّى المختار صديقًا له ، يميل مع هواه ، ويؤيّده فيما يريده من القضاء على نفوذ أوليمبيا وتأثير أنوثتها على روح الأمير الشاب .

ويشاء الحظ الحسن أن تجتمع هذه الصفات كلها فى رجل لم يلبث أن وقع عليه اختيار فيليب ، وهو المعلّم الأول ، الفيلسوف الكبير أرسطو ، الذى كان أبوه « نيكوماكوس » طبيب القصر فى عهد الملك . « أميناس الثانى » والد فيليب . . وكان أرسطو يكبر فيليب بعامين ، وبعد وفاة والده رحل إلى أثينا حيث التحق بأكاديمية أفلاطون الفلسفية ، وبعد أن لبث بها عشر سنوات تركها وقد كوّن لنفسه فلسفته العلمية الخاصة ، وأخذ ينشر هذه الفلسفة فى كتبه وبين تلاميذه .

ويبدو أن فيليب كان يعرف أرسطو فى طفولته ، فلما انفصلا وذهب أرسطو إلى أثينا وذاعت فلسفته ، ظل فيليب يتابع أنباء صديق طفولته . . وعندما ولد الاسكندر عام ٣٥٦ق. م ، بعث فيليب برسالة إلى أرسطو ، جاء فيها : « أكتب إليك لأخبرك بأنى رزقت ولدًا فللآلهة منى خالص الشكر ، لا لمولد الطفل وحسب ، بل لأنه أيضًا ولد فى زمانك ، فإن لى أملاً أن يصبح فى آخر الأمر تلميذًا لك ، وأن يكون جديرًا بانتسابه لنا ، خليقًا بأن يرتقى ذروة عرشنا » .

وها هو ذا أمل فيليب يتحقق ، إذ كتب إلى أرسطو بعد اثنى عشر عامًا يدعوه إلى مقدونيا لينشئ بها مدرسة جديدة ، وليأخذ على عاتقه تعليم

الإسكندر . . ولبى أرسطو الدعوة وتوجه إلى « بيلا » Pella، حيث استقبل استقبالاً كريمًا ، ثم أنشأ مدرسته فى مدينة صغيرة تدعى « ميزا » ليستطيع بذلك إقصاء الإسكندر عن نفوذ أمه تحقيقًا لرغبة فيليب .

وهناك تلقى الإسكندر دروس اللغة والموسيقى والهندسة والخطابة والفلسفة ، فظهر نبوغه بين زملائه من أبناء النبلاء والأمراء الذين ألحقوا بمدرسة أرسطو .

وكان الإسكندر طالبًا مجتهدًا ، يواصل استذكار دروسه فى الفراش شطرًا من الليل ، ويغالب النعاس حتى يستزيد من العلم . . وقد قرأ ودرس تاريخ الفرس ، وملحمتى الإلياذة والأوديسة للشاعر اليونانى الكفيف « هوميروس » .

لبث الإسكندر فى عناية أرسطو عامين اثنين فقط ، وكان الفيلسوف الكبير يهذبه على طريقته فى تنمية مواهب التلاميذ دون أن يحاول فرض شخصيته هو عليهم ، وكان يبيح لهم حرية التعبير عن الرأى ، ومن أمثلة ذلك أنه سأل تلامذته يومًا كيف ينوون أن يعاملوه بوصفه أستاذهم القديم حين يؤول إلى كل منهم ما ينتظر من ثراء أو سلطان .

فقال أحد التلاميذ : سأفرض على الجميع إعلان مظاهر التكريم والاحترام نحوك ، وسيكون عشاؤك دائمًا على مائدتى .

وقال آخر : ستكون أنت مستشارى الأكبر .

فلما وجه أرسطو السؤال إلى الإسكندر ، أجابه غاضبًا : « بأى حق تبيح لنفسك إلقاء هذا السؤال ؟ . . وأنى لى أن أعرف ما فى ضمير المستقبل ؟ . يجب عليك أن تنتظر وترى » .

فأعجب أرسطو بهذا الجواب الصريح الدقيق ، وقال له : « لا فُضّ فوك . . ستكون يا إسكندر يومًا مَلِكًا عظيمًا حقًا » .

لقد أحب الإسكندر أرسطو محبة لا تقل عن محبته لأبيه فيليب ، وقال : إنه على الرغم من أن والده قد أنجبه إلى هذه الدنيا ، فإن أرسطو قد علّمه فن الحياة فيها .

وقد أثبتت الأيام حب التلميذ العبقرى لأستاذه العظيم ووفائه له ، فيذكر المؤرخون أن الإسكندر أمر رجال صيده وبساتنته وصيادى أسماكه بأن يمدوا أرسطو بكل المواد الحيوانية والنباتية التى يرغب فيها . . إذ أن أرسطو لم يكن فيلسوفًا ومعلمًا فقط ، بل كان عالمًا أيضًا .

ويذكر مؤرخون آخرون أن الإسكندر قد أعطى لأستاذه أموالاً كثيرة جدًا (قدروها بملايين الجنيهات) لكى تساعده فى أبحاثه ، وطلب منه أيضًا أن يرسل بعثه باهظة التكاليف لاكتشاف منابع النيل ، وكشف أسباب فيضانه كل عام .

وفوق كل ذلك ، أقام الإسكندر تمثالاً لأرسطو فى قلب مدينة أثينا ، بالرغم من كره الأثينيين وبغضهم للاثنين معًا .

وبعد العامين الذين قضاهما الإسكندر مع أرسطو استدعاه أبوه ليشترك فى قتال الأثينيين ، حتى يكون مستعدًا لاعتلاء العرش إذا هو دُعى إليه فجأة . . فأبدى الإسكندر من البراعة فى خلال الأسابيع التى قضاها لأوّل مرة فى ميدان القتال ما جعل والده يعيده إلى مقدونيا نائبًا عنه فى تصريف شئون المُلك . .

وهكذا أُلقى عبء الحكم على كاهل الإسكندر فى هذه السن الباكرة ، إذ أنه لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره . . وكان كل ما استطاع أرسطو أن

يعلمه فى أثناء العامين السالفين مبادئ التفكير المنطقى والأخلاق العلمية ، ولكنه لم يستطع أن يحوله عن اعتقاده من أنه ابن العناية الربانية وأنه ولد لتنفيذ إرادة الآلهة . . كما لم تستطع فلسفة أرسطو ولم تفلح فى تبريد نيران بركان هذا الشاب الثائر الجامح .

وكان فيليب المقدونى والد الإسكندر ، قد استطاع أن يغزو بلاداً كثيرة ، وأن يوحد بلاد اليونان كلها توحيداً سياسياً ، وجعل أثينا مركز العالم السياسى وقاعدته ، وذلك بعد سلسلة من الحروب انتهت بهزيمة الأثينيين عام ٣٣٨ قبل الميلاد وخضوعهم لحكمه . . إلا أن هذا التوحيد وذلك الخضوع كان مقيداً بالسلاسل ، وعلى مضض من أهل أثينا كلهم .

وبعد انتصاره هذا ، وضع فيليب المقدونى الخطط التى تمكنه هو وابنه من سيادة العالم وتوحيده . . إلا أنه تعرض للاغتيال فى أواخر صيف عام ٣٣٦ قبل الميلاد ، ولم يكن الإسكندر قد أتم ربيعه العشرين بعد ، ولكنه كان قد عُرف فى مقدونيا وأثينا ، وتألف قلوب الكثير من الجند وأفراد الشعب ، وظهر فى ميدان الحرب والسياسة جندياً ومفاوضاً سياسياً شارك فى عقد الصلح مع الأثينيين . . ولكن العقبات لم تلبث أن واجهته ، بالرغم من ذلك ، منذ ارتقى العرش ، فاليونانيون بوجه عام لم يرحبوا بالخطة التى كان يرسمها فيليب للدخول فى حرب كبيرة ضد الفرس ، وبما أن فيليب قد مات وخلفه الإسكندر الشاب ، فقد حانت الفرصة للقضاء على هذا المشروع .

والأثينيون لا يريدون أن يمضوا فى خضوعهم للمقدونيين ، فها هى الفرصة تتاح للنكث بالمعاهدة التى عقدت بينهم وبين فيليب ينعموا بالحرية بعيداً عن استعمار المقدونيين . . وكان على رأس هذه الحركة المطالبة بالحرية فى أثينا خطيب اليونان الأعظم « ديموستين » ، الذى كان يثير ثائرة الجماهير ، ويصب جام غضبه على الإسكندر ويصفه بأقبح الصفات ! .

كما بدأت سائر المدن اليونانية تحذو حذو أثينا وتطرد الحاميات المقدونية من أراضيها إعلانًا للتمرد على الملك المقدونى الناشئ .

ولكن الإسكندر على صغر سنه ، وحداثة شبابه ، لم يساوره الخوف أو تعتريه الرهبة إزاء هذا التمرد المفاجئ . . واجه الموقف مستبسلاً شجاعًا ، ولم يستمع لنصائح قواده الشيوخ ومستشاريه المترددين الخائفين . . وأراد أن يعلم الإغريق جميعًا أن وفاة فيليب لا تعنى أكثر من تغير اسم الملك وشخصه .

وبالفعل ، لم يمض عام واحد على ولاية الإسكندر حتى عاد لمقدونيا سلطانها على اليونان كلها ، ولم تبق فى البلاد مدينة واحدة تجرؤ على إعلان التمرد فى وجه الملك المقدونى الشاب .

ولم يتحقق ذلك للإسكندر ، إلا بفضل جيش مقدونيا القوى الذى تركه له والده ، فقد كانوا جموعًا من الفلاحين المتميزين بالعنف والمقدرة الحربية ، وعلى استعداد لسحق أى عدد وتحت راية ملكهم ، وكانت خطوة الإسكندر التالية بعد أن أخضع اليونان لسلطانه ، ووطد فى البلاد دعائم عرشه ، أن توجه نحو الشرق لتحقيق حلم أبيه الذى صمم هو على أن ينفذه .

.فهبط آسيا عام ٣٣٤ق. م وأنزل الهزيمة بجيش كبير من جيوش الفرس فى معركة « جرانيقة » ثم استولى على عدة مدائن فى آسيا الصغرى . . ثم سار بعد ذلك فى محاذاة الساحل ، وترك فى كل مدينة ساحلية يستولى عليها حامية تقيها غارات الأسطول الفارسى الذى كانت له السيادة فى البحر الأبيض ، فلو أن الفرس استطاعوا أن يظفروا بإحدى تلك المدن لأنزلوا فيها جنودهم ، ولقطعوا على الإسكندر خط الرجعة إلى بلاده .

وفى عام ٣٣٣ق.م التقى الإسكندر بجيوش الملك « دارا الثالث » فى

معركة « أيسوس » فبدد شملها وانتصر انتصاراً باهراً ، وكانت هذه المعركة من أهم معارك الإسكندر الحربية على الإطلاق .

ثم هاجم «صيدا» فاستولى عليها ، وتقدم نحو مدينة «صور» فصمدت وقاومت ، فقام بحصارها ثم اقتحم حصونها ، وبسبب ضيق الإسكندر بمقاومة المدينة دمرها تماماً ، وذبح من أهلها نحو ثمانية آلاف ! (وتلك فظاعة قل أن تفوقها فظاعة فى التاريخ ، باستثناء مذابح تيمورلنك وهتلر) .

وتولى الإسكندر بعد ذلك قيادة جيوشه مهاجماً غزة ، فأفنى جيشها عن آخره ، وبيع نساؤها بيع السلع بعد أن استباح الجند أعراضهن ! .

وفى أواخر شهر نوفمبر من عام ٣٣٢ قبل الميلاد دخل الإسكندر مصر ، واستقبله شعبها بالترحيب والأمل في التخلص من الاستعمار الفارسىّ البغيض .. وكافأ الإسكندر مصر بأن احترم آلهتها وسمح لشعبها بإقامة أعيادهم وطقوسهم ، بل وحاول التقريب بين آلهة مصر وآلهة اليونان ، وهى فكرة ليست جديدة ، إذ أن الأسطورة تقول : إن الإله آمون المصرى قريب الإله زيوس اليونانى .

ومع أن المدة التى قضاها الإسكندر فى مصر لا تزيد عن عدة شهور إلا أنه قام بأعمال جليلة تركت بصمات واضحة حتى الآن .. وأقام الإسكندر فى مصر المباريات الرياضية ونظَّم الاحتفالات الموسيقية والتمثيلية ، وأشرك الفنانين اليونانيين الكبار فى هذه الاحتفالات .

ووصل عن طريق النيل إلى « ممفيس » ، وقدم القرابين إلى الإله أبيس وتُوج فرعونًا على مصر .. ومن ممفيس سار بمحاذاة الفرع الغربى للنيل حتى وصل إلى قرية تسمى « راقودة » ، وهناك اختار بنفسه مكانًا مناسبًا وأمر ببناء مدينة فيه .. هذه المدينة هى الإسكندرية .. التى سميت على اسمه تخليداً له ..

وقد أسند إلى المهندس « دينوقراطس » الإشراف على تخطيطها حسب أفضل أساليب العمارة والبناء فى ذلك العهد .. وقد لعبت الإسكندرية دوراً تاريخياً على مر العصور ، واشتهرت بمكتبتها الضخمة ، ومدرستها التى جاء إليها علماء الأرض لكى ينهلوا من معارفها وعلومها ، كذلك اشتهرت بمتحفها ومنارتها التى هى واحدة من عجائب الدنيا السبع القديمة .. وبعد تأسيس الإسكندرية قام الإسكندر برحلته المشهورة إلى واحة سيوة لزيارة معبد الإله آمون ، وقابله الكاهن الأعظم مقابلة الملوك ، وأدخله معه إلى « قدس الأقداس »، وهو المكان الذى كان محرّماً دخوله على الشعب عدا الكهنة .

وقد حار المؤرخون فى معرفة ما جرى بين الكاهن الأعظم وبين الإسكندر داخل قدس الأقداس والحديث الذى جرى بينهما ، لكنهم لم يعرفوا شيئًا .. ولم يصرح الإسكندر بما حدث ، وكل ما فعله هو أن بعث لوالدته أوليمبيا يعرفها بأنه سوف يقول لها كل شىء بنفسه بعد عودته .. ولكنه للأسف توفى قبل لقائها .

وتقول اجتهادات المؤرّخين أن الكاهن رحب بالإسكندر باعتباره ابن الإله آمون ، وأن دماء الآلهة تجرى فى عروقه ! «بهذا ثبُت لديه اعتقاده القديم – وقال له : إن آمون سيكون معه فى كل حروبه ، وسينتصر فيها .

وغادر الإسكندر مصر بعد أن أرضى كرامتها بأن عهد بإدارة شئون الوجهين البحرى والقبلى إلى اثنين من كبار المصريين ، وعهد بوزارة المالية إلى أحد اليونانيين .

وقد بدأ الرحلة من «منف» فى أواخر إبريل أو أوائل مايو عام ٣٣١ق.م ، فبلغ «صور» فى آخر مايو ، ولم يلبث أن التقى بملك الفرس «دارا» فى موقعة حاسمة على مقربة من مدينة «نينوى» العراقية ، وفى هذه المعركة فشل الفرس فى استخدام العجلات الحربية للهجوم على جيش الإسكندر وتشتيت شمله ،

وكان النصر لفرق الفرسان المقدونيين . فقاد «دارا» جيوشه متقهقراً أمام الغزاة ، حتى احتمى فى منطقة «ميديا» .. وواصل الإسكندر زحفه فغزا مدن بابل ثم سوس وبرسيبوليس وهنا أقيمت الاحتفالات ومدت الموائد فى الولائم الكبيرة ، وشرب الإسكندر حتى الثمالة فأمر بإشعال النيران فى قصر «دارا» ، ملك الملوك .

واستأنف الفاتح المقدونى غزواته فى آسيا الصغرى ، فوصل إلى أقصى حدود الامبراطورية الفارسية .. وقد اتجه أول الأمر إلى الشمال فطارد الفرس ، ثم اتجه إلى كابول ومر مقتحماً بذلك بلاد الهند ، حيث التحم بجيشه مع جيش الملك « بوروس » الهندى فى معركة هائلة على نهر الآندس .. وفى هذه المعركة رأى جنود مقدونيا الفيلة للمرة الأولى ولكنهم تغلبوا عليها .

وأخيراً بنى الإسكندر لجيشه السفن ومضى بها إلى مصب النهر ثم عاد محاذياً شاطىء بلوخستان فوصل مدينة سوس عام ٣٢٤ق.م ، بعد أن غاب عنها ست سنوات .. وهنا أقدم الإسكندر على أجرأ خطوة عرفها التاريخ التوفيق الروابط بين الشرق والغرب .. فقد عمد إلى المزاوجة بين اليونانيين والمقدونيين من ناحية وبين الفرس والبابليين من ناحية أخرى .. وراح يشجّع على هذه المزاوجة بكل وسيلة من وسائل الإغراء ، فأنفق المال لعقد هذه الزيجات وأغدق الهدايا على الأزواج ، فجعل من نفسه وكبار قواد جيشه مثلاً يحتذى فى التزوج بالفارسيات والبابليات ، فقد تزوج الإسكندر بإحدى بنات الملك «دارا» وتدعى « روكسانا » .

وبلغ عدد الذين تزوجوا فى ليلة واحدة أكثر من عشرة آلاف يونانى ومقدونى ! .. وكان الإسكندر يريد بهذا مزج الشعوب الشرقية بالغربية مستعيناً على ذلك بأوثق الصلات ، وهى صلة الرحم .

وقد قال الدكتور طه حسين عن هذه الواقعة فى كتابه « قادة الفكر » عن الإسكندر : « إنه لم يكن قائد جيش ليس غير وإنما كان قائد فكر قبل كل شىء ، وإن تجربته .. لو تمت لغيرت وجه الأرض ولحولت سير التاريخ .. وسواء علينا أكان الإسكندر مصيباً أم مخطئاً فى هذه الفكرة وفى انتهاج هذا المنهج ، فإن الشىء الوحيد الذى لا شك فيه هو أن الإسكندر لم يكن يريد أن يفتح الأرض وحدها وإنما كان يريد أن يفتح معها العقل .. فهو الذى قارب بين الشرق والغرب ومزج العقل الشرقى بالعقل الغربى .. فالإسكندر إذن قائد من قواد الفكر .. وما قيمة الفلسفة اليونانية كلها لو لم يُتح لها الإسكندر ليذيعها فى أقطار الأرض ويبثها فى مختلف الشعوب ؟ » .

على أن الأجل لم يمتد بالإسكندر حتى يبدأ ما كان يختمر فى رأسه من مشروعات ، ويتم ما كان قد بدأ من تجارب وسياسات ، فأصيب بحمى - يقال إنها الملاريا - بعد أن كان قد أعد العُدة وجهز جيوشه للقيام بحملة برية عبر أفريقيا حتى يصل مضيق جبل طارق ، وهناك ينتزع نفوذ الفينيقيين ويستولى على غرب أوربا فى طريقه إلى مقدونيا من طريق الغرب ، بعد أن فتح لها طريقاً آخر فى الشرق .

ولم تمض أيام على إصابته بالحمى حتى نفدت قواه وفارق الحياة فى الثالث عشر من يونيه عام ٣٢٣ق.م .

وكان الإسكندر جديراً بلقب « الأكبر » - ذلك اللقب الذى منحه إياه أعضاء مجلس الشيوخ فى روما بالإجماع - فقد استطاع وهو شاب صغير أن يحقق أحلام والده ، وأن يغزو العالم القديم ويوحده تحت إمرته .. وكان عسكرياً داهية وضع من الخطط العسكرية والنظريات ما يطبقه الآن القادة العسكريون المعاصرون فهو مبتدع الحرب الخاطفة التى تقوم على ضرب العدو وتحطيمه بسرعة متلاحقة قبل أن يستعد ويأخذ حذره .. وهو صاحب فكرة القوات

الاستطلاعية ، إذ أنه قبل أن يشرع فى أى زحف يرسل أمامه طلائع من جنده تذهب فى كل ناحية لاستكشاف الطرق ومعرفة الخطر إن وجد ، وتبعث هذه الطلائع بأخبارها أولاً بأوّل إليه .

وهو الذى طلب من جنوده وقواده أن يتحركوا فى سرية ولا يكثروا من الكلام حتى لا يتسرب إلى العدو .. وهو الذى استخدم طريقة المطاردة مع عدوه المهزوم حتى يقضى عليه قضاءً تاماً ولا يتيح له فرصة استعادة قوته .

وهو الذى لجأ إلى الحصار كوسيلة لإخضاع عدوه واجباره على الاستسلام .. وأنشأ الإسكندر فى جيشه قسماً خاصاً أطلق عليه الكتائب المتراصة « فلانكس » ، يتكون من جنود منظمين ومسلحين ، يلبسون الدروع على أذرعتهم وفى أيديهم رماح طول الواحدة ستة عشر قدماً وفى رءوسها حراب من حديد متجهة إلى الأمام ، ويصطف الجنود صفوفاً منتظمة خلف بعضها فى مواجهة العدو ستة عشر صفاً ، يتكون كل صف من ألف جندى .. وكان لهذه الكتائب عمل فى الدفاع وآخر فى الهجوم .

ففى الدفاع لا يستطيع أى جيش الهجوم على هذه القوات وإلا اخترقت الرماح البارزة إلى الأمام صدور الجنود وبطونهم .. وفى الهجوم تتحرك هذه الكتائب كالحصن المنيع وهى مغطاة بالحديد والنحاس فتبيد أية قوى تقف أمامها أو تحاول التصدى لها .. وكان موقع الكتائب المتراصة هذه فى قلب الجيش .

والإسكندر هو الذى علم العالم أهمية خوض المعارك فى الشتاء .. وهو أيضاً صاحب مبدأ « ازحف متفرقاً وقاتل متحداً » .

ولم يكن الإسكندر صاحب نظريات فى التكتيك العسكرى والإستراتيجية الحربية فقط ، وإنما كانت لديه قدرة فائقة على جذب الجنود والسيطرة عليهم ،

وكان يقدر مالوسائل التسلية من قيمة وأهمية فى رفع الروح المعنوية لجنده .. فأقام الحفلات الموسيقية وعقد المباريات الرياضية بينهم بعد كل معركة .

وكان مثلاً أعلى للقائد الشجاع الذى يحارب مع جنده فى كل معركة ولا يدير الحرب من بعيد .

وحدث مرة أن أبدى جنوده رغبتهم فى عدم الحرب ، وذلك بعد معركة صعبة بذلوا فيها جهداً كبيراً ، فلما سمع الإسكندر هذا حمل سيفه فى يده وقال « سأغزو الهند وحدى » ! ، وألقى بنفسه فى النهر ، فتبعه جنوده معجبين بشجاعته وجرأته النادرة .

وكان يعمل على راحتهم دون أن يلفت أحد نظره إلى ذلك ، فيذكر أن فصل الشتاء أقبل ذات عام على جنده وضباطه وكانوا على مسافة قريبة من وطنهم تقدر بثلثمائه أو أربعمائة ميل فأعلن الإسكندر لجيشه أن لا مانع من عودة الجنود والضباط الذين تزوّجوا هذه السنة لعائلاتهم لقضاء الشتاء معهم ، ثم العودة إلى وحداتهم فى فصل الربيع لمواصلة الزحف مع الجيش .

وقد شغلت شخصية الإسكندر الأكبر المؤرخين والأدباء والكتاب منذ حياته قبل الميلاد وبعده بآلاف السنين .. ولا شك أن شخصيته جديرة بالاهتمام ، فقد جمعت أكثر من عبقرية فى شخص واحد .. عبقرية سياسية وعسكرية وفكرية حضارية .

إلا أن الكثيرين من هؤلاء المؤرخين والكتاب قد وقعوا فى خطأ جسيم حينما قالوا : إن الإسكندر الأكبر هو نفسه « ذو القرنين » الذى ذُكر فى القرآن الكريم فى سورة الكهف ! .

وهذا ليس صحيحاً على الإطلاق لعدة أسباب .. منها أن السياق القرآنى

يدل دلالة قاطعة على أن ذى القرنين كان رجلاً مؤمنًا بالله تعالى ، أما الإسكندر فقد كان رجلاً وثنيًا يعبد عدة آلهة ، بل إنه اعتقد أنه سليل هذه الآلهة ، وكان يشرب الخمر ويصاحب النساء .. فأين هذا من الإيمان ؟! .

ومنها أن ذى القرنين ، كما حكى القرآن ، هو الذى بنى سدًا بين قومى يأجوج ومأجوج ، وأخبره الله تعالى أن هذا السد سوف ينهار فى آخر الزمان ، ليخرج هذان القومان على الناس ليفسدا فى الأرض ، وذلك من علامات الساعة الكبرى .. ولم يذكر المؤرخون شيئًا عن بناء مثل هذا السد فى حياة الإسكندر ، مع أن سيرته وتاريخ حروبه وفتوحاته معروفان تمامًا .. ومنها أيضًا أن ذى القرنين كان رجلاً عادلاً وحكيمًا ورحيمًا ، فقد قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا . قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ . (الكهف ٨٦ – ٨٨) .

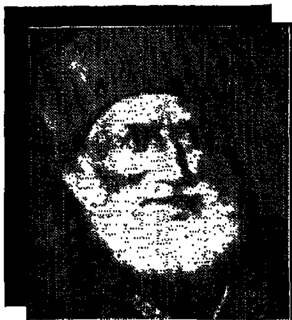
أما الإسكندر فقد كانت به مسحة من الوحشية وكثير من الشدة والعنف الذى يجتاحه من حين لآخر ، وقد أسلفنا أنه لما اقتحم مدينة صور بعد أن حاصرها ستة أشهر ، دمر المدينة تمامًا ، وذبح من أهلها نحو ثمانية آلاف .. وما أبعد ذلك عن العدل والرحمة ! .

وقد نفى الإمام الحافظ بن كثير فى نفسيره المشهور أن يكون الإسكندر المقدونى اليونانى هو ذى القرنين الوارد ذكره بسورة الكهف .

أما لقبه « ذو القرنين » الذى تلقب به الإسكندر الأكبر ، فقد جاء بعد زيارته لمعبد الإله آمون فى واحة سيوة بمصر ، وألبسه الكهنة تاجًا ذى قرنين ، وليس بالضرورة أن يكون هناك صلة بينه وبين المذكور فى القرآن الكريم .

وهكذا كانت هذه أسطورة أخرى شاعت حول الإسكندر ، كما شاعت وحيكت أساطير أخرى حول مولده .. وحياته كلها .





محمد على باشا

(١٧٦٩ - ١٨٤٩)

بانى مصر الحديثة

- يتفق كل من يقرأ تاريخ مصر على أن محمد على هو واحد من أفضل الحكام الذين تولوا عرش البلاد قديمًا وحديثًا ، وأنه أقام فى مصر نهضة عسكرية وصناعية وتعليمية وزراعية وتجارية ، أصبحت بفضلها أقوى دولة فى الشرق الأوسط على الإطلاق .

وقد قال كارل ماركس عن محمد على : « **إنه الشخص الوحيد الذى استبدل العمامة المفتخرة لتركيا برأس حقيقية** » .. وهو يشير بذلك إلى حنكته السياسية وخبرته الاقتصادية ..

وقد ولد محمد على بن إبراهيم أغا بن عثمان أغا بن إبراهيم أغا ، عام ١٧٦٩ ، فى مدينة « قولة » التابعة الآن لليونان ، وكانت وقتئذ تابعة للعثمانيين ، وكان أبوه رئيس الجند المنوط بهم حراسة الطريق بتلك البلده ..

وقد رزق أبوه إبراهيم أغا وأمه زينب هانم ، سبعة عشر ولدًا لم يعش منهم سوى محمد على ! وقد توفى إبراهيم أغا عام ١٧٩١ ، ولحقت به زوجته عام ١٧٩٦ ، فكفل محمد على عمه طوسون ، ثم توفى هو الآخر بعد ذلك بمدة وجيزه ، فكفله إسماعيل الشوربجى حاكم المدينة وأحد أصدقاء والده .. وما أن بلغ أشده ، حتى انتظم فى سلك الجندية ، ونال رتبة « يوزباشى » ثم تزوج بأرملة هى « أمينة هانم » ، وقد أنجبت له ثلاثة بنين وبنتين ، هم :

«إبراهيم» (١٧٨٩) ، و«طوسون» (١٧٩٣) ، و« إسماعيل » (١٧٩٥) ، و«توحيدة» (١٧٩٧) ، و«نازلى» (١٧٩٩) .. وقد لحقت به زوجته فى مصر عام ١٨٠٩ ..

واحترف محمد على تجارة الدخان ، وأثرى من ورائها ، ولكنه فضل العودة إلى الحياة العسكرية على إثر الأمر الذى تلقاه حاكم « قولة » من الباب العالى بإعداد مالديه من الجند لضمهم إلى الحملة المزمع إرسالها إلى مصر لطرد الفرنسيين منها ، فتألفت كتيبة من ثلاثمائة جندى عُين ابن الحاكم قائداً لها ، ومحمد على مساعداً له ، وأبحرت هذه القوة على ظهر إحدى السفن التركية الكبيرة التى ألقت مرساها فى ساحل أبى قير بالإسكندرية فى أوائل شهر مارس عام ١٨٠١ ، وكان الأسطول البريطانى قد رسا قبل وصولها فى أبى قير أيضاً ، وكانت قوته ٦٠٠٠ جندى انجليزى ، بقيادة الجنرال « رالف إبركرومبى » .

وماكاد الأتراك ينزلون إلى البر ، حتى انخرط محمد على فى صفوف القوة التى قامت مع القبطان حسين باشا ، وسارت فى فرع رشيد ، بالاشتراك مع الفرقة الإنجليزية التى تولى قيادتها الكولونيل سبنسر .. ثم أمر حسين باشا محمد على بمهاجمة قلعة الرحمانية التى اعتصم بها الفرنسيون بقيادة الجنرال لاجرانج ، فقام بهذه المهمة خير قيام ، وأجلى الفرنسيين عنها ، فكوفئ برتبة « بكباشى » ثم شهد جلاء الحملة الفرنسية تماماً عن مصر، واستقر به المقام فى القطر المصرى .

وفى أواخر عام ١٨٠١رقاه خسرو باشا والى مصر إلى رتبة « قائمقام » وجعله فى معيته .. وقد كانت العلاقات بين محمد على وخسرو باشا فى أول الأمر على أحسن ماتكون من الود والصفاء ، إلى أن وقعت معركة « دمنهور » فى نوفمبر ١٨٠٢ بين المماليك والعثمانيين ، وانهزم الأتراك ، وكان محمد على

على مقربة من مكان الموقعة ، ولكنه لم يتحرك للمساعدة اتكالا على تفوق الأتراك فى العدد والعتاد ، فلما علم خسرو باشا بذلك حَنَق على محمد على وأضمر له السوء واستدعاه لمقابلته ليلا ، فأجابه محمد على بأنه سيحضر نهاراً على رأس جنده ، فتوترت العلاقات وساءت بينهما .. وفى ١٦ مارس ١٨٠٣، أقلع الأسطول الإنجليزى من أبى قير ، وترك الإسكندرية تماماً ، غير أن المماليك أخذوا يحتلون الميناء ، فأصدر خسرو باشا أمره إلى جنده بالمسير إلى الصعيد لمطاردتهم فأبى الجند السير حتى يحصلوا على مرتباتهم المتأخرة ، وكان ذلك بإيعاز من محمد على الذى وجد الفرصة سانحة للتخلص من خسرو ، وقد خشى خسرو على حياته ففر إلى دمياط ، وعين طاهر باشا والياً مكانه ، إلا أن طاهر باشا اغتيل بعد قليل ، فتولى أحمد باشا والى المدينة الحكم ، وبادر إلى العمل على استمالة محمد على الذى كان يرأس وقتئذ قوة مؤلفة من أربعة آلاف من الأرناؤوط .. غير أن محمد على أعرض عنه واتفق مع المماليك على دخول القاهرة ، فدخلوها وتسلموا مقاليد الأمور ، وطردوا منها الحامية الانكشارية وأحمد باشا ، وداهموا مخازن الغلال ، ووزعوا الصدقات على الفقراء ، وألقوا القبض على خسرو واعتقلوه فى القلعة .

وقد رأى محمد على أن يعين خورشيد باشا حاكم الإسكندرية والياً على مصر ، ولكن سرعان ماانقلب الوالى الجديد ضده ، ورغب فى ترحيل محمد على من البلاد ليخلو له الجو ، فسعى لدى السلطان وبعث إليه بالهدايا ، إلى أن صدر أمر سلطانى بنقل محمد على إلى ولاية « جدة » إلا أن محمد على لم يذعن لهذا الأمر .

وفى ١٣ مايو عام ١٨٠٥، عقد المشايخ والعلماء والأعيان والصُناع والتجار اجتماعاً فى بيت القاضى ، ومنه ساروا بموكب عظيم إلى منزل محمد على ، وأخبروه أنهم قرروا عزل خورشيد باشا ، وأنهم لايرضون إلا به واليا عليهم .

وتقدم السيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوى - شيخ الجامع الأزهر - وألبساه « الكرك والقفطان » ، وهما شارة الحكم ، وسار الجميع إلى القلعة حيث امتنع فيها خورشيد باشا ورفض الخروج .

وفى ٩ يوليو حضر رسول من الآستانة من قبل السلطان العثمانى ، ونزل ضيفًا على محمد على بمنزله فى الأزبكية ، وسلمه فرمانًا يقضى بتوليه مصر ، حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وذلك ابتداء من ٢٠ ربيع أول ١٢٢٠هـ ، ١٨ يونيو ١٨٠٥ ، وعزل خورشيد باشا .

وقد تسلّم محمد على القلعة فى ٥ أغسطس من نفس العام ، وبدأ مباشرة الحكم ..

وقد واجهه العديد من الصعاب ، وأهمها مشكلة المماليك ، وعلى رأسهم محمد بك الألفى ، وكانوا يبذلون كل رخيص وغالٍ فى سبيل إقصاء محمد على عن مصر .. وقد توصلوا فعلاً - بمساعدة انجلترا - إلى استصدار فرمان بنقل محمد على إلى ولاية « سلانيك » وتولية موسى باشا واليًا جديدًا على مصر .. غير أن محمد على أظهر الامتثال ، وأرسل إلى السلطان ابنه إبراهيم ، ومعه هدايا ثمينة ، وتعهد بدفع ٤ آلاف كيس - أى ٢٠ ألف جنيه - إلى الباب العالى كل عام ، علاوة على قيامه بالحج ونفقاته ، وسرعان ماوافق السلطان على تثبيت محمد على فى ولاية مصر فى نوفمبر ١٨٠٦ .

وفى ٢٢ مارس ١٨٠٧، ألقى الأسطول الإنجليزى مرساه فى الإسكندرية بقيادة « فريزر » حيث احتل الإنجليز الإسكندرية ، وكان عددهم ٦٠ ألف جندى ، وحاول فريق منهم غزو رشيد مرتين ، إلا أن الأهالى وقفوا لهم بالمرصاد وانقضوا عليهم مثل النمور الكاسرة وفتكوا بهم فتكًا ذريعًا .. وفى أوائل سبتمبر من نفس العام ، قدم محمد على إلى الإسكندرية على رأس قوة كبيرة ، فلما شعر الإنجليز بعجزهم عن الدفاع اضطروا إلى الجلاء ، وأخلوا

الإسكندرية فى ١٤ سبتمبر ، وبعد يومين اثنين دخل محمد على المدينة بين مظاهر الفرح والاحتفال ، وبذلك انتهت هذه العقبة الإنجليزية وزالت من طريق محمد على .

ثم رأى أن يتخلّص نهائيًا من العقبة الراكدة أمامه دائما ، وهى المماليك ، فتخلص منهم فى ماعرف بمذبحة القلعة عام ١٨١١ ، وبذلك تربع على عرش البلاد دون منازع .

وقد عنى محمد على فى أثناء حكمه بمختلف الشئون العامة ، فوضع دعائم استقلال مصر ، بل حقق حريتها ونهض بها نهضة مباركة ، وسعى لدى الباب العالى حتى نال اعتراف تركيا بنظام تولى الحكم فى مصر ، وفتح المدارس الحربية ، وزاد عدد الجيش من ٢٠ ألف مقاتل فى أوائل حكمه إلى ٢٣٥,٨٨٠ ألف فى عام ١٨٣٩ ، واستقدم الكولونيل « سيف » الفرنساوى – سليمان باشا الفرنساوى بعد ذلك – لكى يتولى قيادة وتدريب الجيش . ووجه عنايته إلى البحرية المصرية حتى تبوأت مصر المرتبة الثالثة بين أساطيل الدول العظمى ، وأسس المدارس والمعاهد العالية للعلوم الهندسية والطب – التى استقدم لها كلوت بك – والصيدلة والألسن والمعادن والمحاسبة والفنون والصنائع والزراعة والطب البيطرى ، عدا اثنتين وخمسين مدرسة ابتدائية فى مختلف المديريات ، كما أوفد البعثات الدراسية إلى فرنسا ، وأشهرها البعثة التى كان على رأسها رفاعة الطهطاوى ، وأنشأ أول صحيفة مصرية وهى « الوقائع المصرية » ، وشجع حركة الترجمة على أوسع نطاق ، وشق ترعة المحمودية وحوالى أربعين ترعة أخرى ، وأنشأ القناطر والجسور ومنها القناطر الخيرية ، وأنشأ كثيراً من الدور العامة كدار الآثار والرصدخانة والدفترخانة ، ووسع نطاق الزراعة فغرس أشجار التوت والزيتون ، وأدخل أنواعا جيدة من القطن ،

والتبغ ، وأنشأ كثيراً من المصانع وأبطل نظام الالتزام ، ووضع قانون « السياسة نامه » أحاط فيه بنظام الحكومة .

وكان محمد على يشيد فى كل مناسبة بالقومية المصرية ووطنية المصريين ، وعلى الأخص فى أوامره إلى جيشه ، وهذه فقرة من كتابه إلى جيشه الرابض بالشام : « **بهذه الرجولة رفعتم شأن العساكر ، ومن الآن فصاعداً مرغوبنا أن تجروا هذه الصفات الحميدة المقرونة بالشجاعة على كل من أراد السوء إلى الديار المصرية التى زدنا بها شأنا وشهرة بكد يميننا وعرق جبيننا .. ولأجل فخركم أصدرنا لكم مرسومنا هذا** » .

وهذه فقرة أخرى من كتابه إلى جنوده المحاصرين لقلعة عكا ، يقول : « **الآن قرب سقوط عكا واستيلاؤكم عليها بالسطوة المصرية القاهرة .. اعلموا أن الثابت هو الشرف والفخر ، الإقامة بالراحة على نيل مصر** » .

وبهذه الكلمات وأمثالها استطاع محمد على أن يبث فى جنده وفى الشعب الذى ولاه روح الوطنية وفكرة القومية ، حتى استحق عن جدارة لقب « باعث النهضة القومية فى البلاد » .

وقد خاضت مصر فى عهد محمد على غمار عدة حروب فى صحارى جزيرة العرب ، وفى فيافى السودان ، وفى سواحل المورة ، وفى بطاح فلسطين ومشارف سوريا وهضاب الأناضول .

ففى عام ١٨١١ ، استنجد السلطان محمود الثانى بمحمد على باشا لقمع فتنة الوهابيين الثائرين فى بلاد العرب ، فأعدّ حملة عقد لواءها لابنه طوسون ، وأثناء الحرب ، ذهب محمد على نفسه إلى الحجاز ، وأدّى مناسك الحج ، وهناك

وافاه سبعة آلاف مقاتل ، والتقى الجيش المصرى بالوهابيين فدحرهم وانتصر عليهم انتصارا مبينًا ، وكان ذلك عام ١٨١٣ ، وعاد محمد على إلى مصر ، ولحق به ابنه طوسون .

وفى عام ١٨١٦ ، جرّد حملة جديدة عقد لواءها لابنه إبراهيم باشا ، الذى حمل على « الدرعية » فى سبتمبر ١٨١٨ حملة شعواء أرغمت الأمير عبد الله على الاستسلام وتسليم المدينة ، وبهذه الموقعة دخلت جزيرة العرب فى حكم مصر ، وبقيت هكذا من عام ١٨١١ إلى عام ١٨٤١ ، حيث اضطر الجيش المصرى إلى إخلائها تنفيذاً لمعاهدة لندن .

وفى أوائل عام ١٨٢٠ ، جهز محمد على فرقة فتحت واحة « سيوة » لتأمين حدود مصر الغربية ، ثم ولّى وجهه شطر السودان ، فأعد حملة عقد لواءها لأصغر أبنائه « إسماعيل كامل » وحملة أخرى بقيادة زوج ابنته « محمد بك الدفتردار » ثم بعث لهم فتح السودان ، وأصيب إبراهيم باشا بمرض « الدوسنتاريا » فعاد إلى مصر ، ودبر ملك مدينة « شندى » مكيدة أودت بحياة إسماعيل حرقًا ، فانتقم له محمد بك الدفتردار ، وأسس مدينة الخرطوم بأمر محمد على ، واتخذها قاعدة للحكم .

وفى عام ١٨٢١ ، استنجد السلطان محمود مرة ثانية بمحمد على لتأديب الأروام الثائرين على الدولة العثمانية ، فبادر محمد على إلى إعداد حملة بقيادة إبراهيم باشا ، الذى قاد أيضًا القوات التركية ، فتوالت انتصاراته ، واحتل شبه جزيرة المورة ثلاث سنوات ونصف ، غير أن تدخل الدول الأوروبية وتآمر أساطيلها على تدمير الأسطول المصرى ، أدى إلى وقوع كارثة « نافارين » البحرية فى ٢٠ أكتوبر عام ١٨٢٧ ، فاضطر إبراهيم باشا إلى إخلاء المورة ، إذعانا لأمر أبيه ، وقد قدم السلطان محمود جزيرة « كريت » إلى محمد على تعويضًا له عن خسائره فى كارثة نافارين ، ولكنه لم يقنع بهذة المكافأة القليلة

فى نظره ، فطلب ضم سوريا إليه ، فرفض السلطان ذلك ، فأصر على فتح الشام بحد السيف .

وفى ١٤ أكتوبر عام ١٨٣١ ، تحركت الجيوش المصرية لفتح الشام بقيادة إبراهيم باشا ، وتم له الاستيلاء عليها ، وتابع سيره حتى توغل فى هضاب الأناضول ، واحتل « طرسوس » و« أطنه » و« أريكى » و« قونية » و« كوتاهية » و« أزمير » ، ووقفت طلائع الجيش المصرى على أبواب استانبول غازية مهددة ، فاضطر السلطان إلى قبول الصلح ، وعقد مع محمد على معاهدة « كوتاهية » وبمقتضاها امتدت حدود مصر الشمالية إلى مضيق « كولك » بجبال طرسوس ، كما تنازل السلطان عن سوريا لمحمد على ، وأيد سلطانه على جزيرة « كريت » وجزيرة العرب ، وأعطى إبراهيم باشا ولايتى « أطنة » و« جدة » وعينه شيخ حرم مكة ، وقبل أن تكون ولاية مصر وراثية فى أسرة محمد على ، ولكن تركيا أرادت أن تستعيد ممتلكاتها من محمد على ، فشنت الحرب عليه ، وانتصر إبراهيم باشا انتصاراً ساحقاً على الجيش التركى فى موقعة « نزيب » المشهورة عام ١٨٣٩ ، غير أن الدول الأوروبية تكاتفت لنصرة السلطان عبد المجيد ، وأبرمت فى ١٥ يوليو عام ١٨٤٠ معاهدة « لندن » التى حرمت محمد على كثيراً من انتصاراته الحربية ، وعملت على تحجيمه ، ولكنه اضطر أمام تألب الدول عليه إلى الجنوح للسلم .

وقد قام محمد على باشا فى إبَّان حكمه بستة أسفار خارج مصر .

ففى عام ١٨١٣ قصد الحجاز ، وأدى فريضة الحج هناك .

وفى عام ١٨٣٣ قام برحلة إلى جزيرة « كريت » كان الباعث إليها إنشاء ترسانة بحرية لبناء السفن ، وإعداد ميناء حربى للأسطول المصرى .

وفى عام ١٨٣٤ ، قصد ربوع فلسطين ليطمئن بنفسه على الموقف ، وكانت قد شبت فى أنحائها الثورات والفتن ، فألقى حضوره فى قلوب المتمردين الرعب ، فسارعوا إلى الإعراب عن ولائهم وطاعتهم .

وفى عام ١٨٣٨ ، اعتزم زيارة السودان ، ليتعهد شئون الإدارة المصرية فيها وليبحث عن مناجم الذهب ، ولكن البحث لم يسفر عن أية نتيجة يرضاها ، فعاد إلى مصر بعد خمسة أشهر .

وفى عام ١٨٤٦ ، أراد أن يعلن حسن نيته للباب العالى ، فعهد إلى حفيده عباس بمقاليد الأمور فى مصر ، وسافر إلى تركيا حيث نزل ضيفًا على السلطان عبد المجيد ، الذى رحب به كل الترحيب ، وفى أثناء عودته زار مسقط رأسه « قولة » ، وترك فيها عدة أعمال خيرية .

وفى عام ١٨٤٨ ، أحس أن صحته قد ضعفت ، فاعتزم السفر إلى أوروبا للاستشفاء ، بناء على مشورة طبيبه الخاص « كلوت بك » فذهب بصحبته إلى جزيرة مالطة ، حيث قضى بها عشرة أيام ، ثم ذهب إلى نابولى بإيطاليا ، وهناك التقى بابنه إبراهيم باشا .. ثم عاد إلى مصر .

وقد ضعفت صحة محمد على ضعفًا شديداً ، حتى إنه لم يستطع الاضطلاع بأعباء الحكم ، فعاد إبراهيم باشا من أوروبا وتقلد الحكم فى مصر بدلاً من والده ، غير أن المنية عاجلته فى العاشر من نوفمبر عام ١٨٤٨ ، فجاء عباس باشا بن طوسون ، حفيد محمد على من مكة ، وتقلد زمام الحكم ، فى حين اشتدت وطأة المرض على محمد على حتى توفاه الله فى الثانى من أغسطس عام ١٨٤٩ ، الثالث عشر من رمضان عام ١٢٦٥هـ ، بعد أن تم على يديه من جلائل الأعمال ماتنوء به العصبة أولو القوة من أعاظم الرجال .

★ ★ ★



جالينوس

(١٣٠- ٢٠٠م)

أشهر أطباء التاريخ

- منذ أكثر من ١٨٠٠ سنة ، زار أحد الفلاسفة الفرس طبيبًا يونانيًا شهيرًا ، عرض عليه الإصبعين الصغريين من إحدى يديه ، كانتا قد فقدتا حاسة اللمس .. وقد أوضح الفيلسوف أنه جرب مختلف أنواع العلاج التى وصفها له الأطباء ، والتى اعتمدت على اللبخات والمراهم والتعاويز .. فابتسم الطبيب ، ثم سأله بعد أن أتم فحصه : هل سبق لك أن أُصبت فى ظهرك ؟ .. فأجاب : أجل .. حدث أن سقطت من العربة وارتطمت رقبتى بحجر حاد ، ولكن ماعلاقة ذلك بأصابعى ؟! فأجاب الطبيب : إن تلك الإصابة قد أحدثت التهابا فى نخاع عمودك الفقرى ، عند الفقرة السابعة من فقرات الرقبة .. وهذا الموضع هو الذى يمر به العصب الذى يصل إلى طرفى الإصبعين الصغريين من يدك ..

كان ذلك فى عام ١٧١ ميلادية ، وهذا التشخيص الدقيق هو نفسه الذى يمكن لطبيب مؤهل أن يضعه اليوم .

أما ذلك الطبيب اليونانى الذى شرح أسباب المرض للفيلسوف الفارسى ، فهو الذى ذكره أبو الطيب المتنبى الشاعر المعروف فى قوله :

يموتُ راعى الضأنِ فى جَهْلِهِ

مَوْتَةَ جَالِينوسَ فى طبِّهِ

وربَّمَـــا زَادَ عَلَى عمْـــــرِهِ
وَزَادَ فـــى الأمــنِ علـــى سِرْبِهِ

إنه جالينوس .. أشهر الأطباء فى العصر القديم ..

ولد كلوديـوس جالينـوس C.Gallien فى نحو عام ١٣٠ ميلادية ، فى بلدة « برجاموم » Pergamum ، الواقعة على الشاطئ التركى للبحر المتوسط ، وقد ظلت لفترة طويلة مملكة يونانية ذات حضارة مميزة ، ثم ضُمت فى عام ١٣٣م إلى الامبراطورية الرومانية .. وتعرف اليوم باسم « برجام » وتقع شمالى أزمير التركية .

وكانت برجاموم هذه مدينة جميلة ، بل ربما كانت أجمل مدن الإغريق وقتها ، كما قيل عنها ، إذ كانت تطل على بحر إيجه ، وكانت مركزًا للثقافة .

ولد جالينوس لأب احترف الهندسة ، وقد تولى تربيته وتهيئته لدراسة الفلسفة .. وقد قال جالينوس عن نفسه وعن أسرته : « **إن أبى لم يزل يؤدِّبنى بما يُحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات ، مما يؤدَّب به الأحداث ، حتى انتهى بى العمر إلى خمس عشرة سنة ، وبعدها أسلمنى إلى تعلم المنطق ، وقصد بى إلى تعلم الفلسفة وحدها ، ولكنه رأى فى منامه رؤيا دفعته إلى تعليمى الطب ، فدفعنى إليه ، حتى أتممت سن السابعة عشرة** » .

وعلى ما يبدو فإن جالينوس كان معجبًا محبًا لأبيه كارهًا لأمه ، لهذا قال فى موضع آخر : « **كان أبى هادئًا ومحبًا وشريفًا ، بينما كانت والدتى سيئة الخُلُق ، تعض الخدم !** » .

إذًا فقد درس جالينوس الطب فى هذه السن الصغيرة فى برجاموم ، وبجانب ذلك أيضًا عرف مدارس الفكر والفلسفة الإغريقية وألِفَهَا .. فالأفلاطونية والأرسطية والرواقية والأبيقورية ، كلها أخذ بها علمًا .

ومضى جالينوس فى تعلُّم الطب ، فتنقل بين البلاد بدءًا بأزمير ، حيث تلقى العلم على يد طبيب مشهور فى ذلك الزمان يدعونه « بيلوبس Pelops » ، ثم توجه بعدها إلى اليونان ، ومن ثم إلى فينيقيا وفلسطين وجزيرة كريت وقبرص .. وختم تنقله هذا بزيارة مدرسة الطب الشهيرة بالإسكندرية .

وكانت الإسكندرية وقتها مركزًا للثقافة الإغريقية ، وبها جامعة كبيرة ، لها متحف عظيم ، وبها أكبر مكتبة فى العالم ، وهى التى أخرجت من العلماء الإغريق الكثير ، مثل إقليدس وأرشميدس ، وغيرهما .. وقد لحق جالينوس بكلاوديوس بطليموس ، الفلكى والجغرافى الكبير .

أمضى جالينوس فى الإسكندرية خمس سنوات ، حضر فيها محاضرات فى الحساب والهندسة ، كما درس التشريح ، حيث درج الأطباء على تشريح أجسام القرود ، إذ كانوا يسلمون بأن كل مايصدق على أجسام القرود يصدق أيضا على أجسام البشر .. ولطالما ارتكبوا الأخطاء الفادحة تبعًا لالتزامهم هذه القاعدة .

ولعل تعذر تشريح الأجسام أو الجثث البشرية فى تلك الأيام ، كان العامل الرئيسىّ الذى حال بين جالينوس وبين التشريح .. وحال دون إتقانه .

وترك الإسكندرية .. ولعله لم يقتنع بالدراسة هناك ، أو كما قال : « إن فن الطب كان يدرسه الجهلة لجماهير من الصبية الصغار ، لم يبلغوا الرابعة عشرة من عمرهم ، وهم لم يقتربوا من مريض قط ، وإنما كان عن طريق المحاضرات النظرية ! » .

وعاد جالينوس إلى مسقط رأسه ، برجاموم ، ليمارس مهمة جرَّاح المصارعين الرسمى ، حيث نجح نجاحًا منقطع النظير ، وزادت هذه الفرصة علمه بالطب هناك ، وأجرى بحوثًا فى التشريح ووظائف الأعضاء .

وأصبح جالينوس طبيبًا شهيرًا .. فذهب إلى روما ، فى سن الثالثة والثلاثين ، وهناك فتحت له الدنيا ذراعيها ، فأخذ يدرس ويكتب ويحاضر ، حتى أصبح الطبيب الخاص لامبراطور روما الشهير « ماركوس أوريليوس » Marcus Aurelius ، الذى شفاه من مرض عجز الأطباء عن تشخيصه .

وقد كان جالينوس يلقى المحاضرات فى المسارح العامة بروما ، ويصادق رجال المدينة البارزين ، وأصبح أيضًا الطبيب الخاص لخَلَف الامبراطور بعد وفاته .

ولم تكن مزاولة الطب تخضع للرقابة فى ذلك العهد ، مما جعل عددًا كبيرًا من الدجّالين ينالون الشهرة والثروة من وراء ماكانوا يقومون به من وسائل يزعمون أنها تساعد على الشفاء .. وقد أدرك جالينوس هذا الوضع ، فأشار إليه بانتقاد شديد ، ومما قاله : « **لقد وصلت الدرجة إلى أن الإسكافيين والصباغين والنجارين والحدادين ، أخذوا يهملون حرفهم ويزاولون مهنة الطب .. إن الأشخاص الذين يمزجون الألوان للفنانين ، والعقاقير لتجار العطور ، يدعون لأنفسهم ألقاب العلماء** » .

وبسبب هذا الانتقاد ، لم يحظ بإعجاب زملائه الآخرين من الأطباء وممن يشتغلون بالتطبيب ، كما حظى بتقدير الأباطرة واحترامهم .. فقد تعالى عليهم وتطاول فى الكلام ووجّه إلى بعضهم من النعوت والصفات مالامجال لذكره هنا .. حتى كرهوه وثاروا عليه وتآمروا على قتله !.. الأمر الذى دفعه إلى

الهرب من روما والعودة إلى برجاموم .. واستقر بها ليمارس مهنته وبحوثه على خير وجه ، إلى أن توفى بها .

لقد تميز جالينوس بذكاء خارق ، ونباهة فائقة ، وقوة ملاحظة شديدة ، وطلاقة لسان جذابة ، وتحلي بولعه المفرط بالقراءة والمطالعة ، وتعلُّقه الشديد بالتأليف والكتابة حتى قيل : إنه ألف ٤٠٠ مجلد (لم يصلنا منها سوى ثلاثة وثمانين مجلداً فقط) .

وقد تبنَّى نظريات أبقراط الطبية (أبو الأطباء) وأعاد شرحها ، كما أخذ عن أفلاطون وأرسطو ، وكان أهم ماآمن به هو نظرية الأخلاط الأربعة ، التى ورثها عن أبقراط ، ثم نقلها عنه أطباء العرب والمسلمين وكل أطباء القرون الوسطى .. وهى نظرية تنادى بأن الإنسان مكون من أربعة عناصر ، هى الماء والهواء والتراب والنار ! ، وعليه فإن الناس ينقسمون إلى أربعة أمزجة هى السوداوى والبلغى والدموى والصفراوى ! .. ولهذا أيضًا كان هناك أربع صفات هى الحار والبارد والجاف والرطب ، ومن هنا كانت نشأة الأمراض من اختلاف الأخلاط ، وغلبة أحدها على الآخر .

غير أن جالينوس كان يعزو المرض أيضًا إلى الإصابات أو القصور العضوى ..

ومن فلسفات جالينوس أن روح الإنسان ثلاثية هى : الروح الحيوانية ومركزها المخ وهى سر المخ ، وتسرى عبر الأعصاب .. والروح الكونية ومركزها القلب ، وهى سر العاطفة وتدخل مع النفس .. والرُّوح الطبيعية ومركزها الكبد ، وهى سر النمو وتدخل مع الطعام !.

إن سر سطوة آراء جالينوس على الفكر الطبّى أنه كان غائيًا ، بمعنى أن كل شيء خلقه الله تعالى إنما خلقه لغاية أو حكمة خاصة ، وهذا ماصادف هوى

ورضا لدى الفكر الدينى المتعصب ، الذى ساد الكنيسة فى أوربا فى العصور الوسطى ، ومن هنا كان تنبيهًا لآرائه ، واعتبار أى مخالفة لها كفرًا وإلحادًا وهرطقة !.

وكانت الجثة ، لدى تشريحها ، إذ اكشفت عن شيء خالف جالينوس ، فقد صدق جالينوس ، وأخطأت الجثة !.

ولكن العلم أثبت بعد ذلك الأخطاء التى وقع فيها جالينوس ، وأدت إلى تخلف علم الطب قرونا عديدة .. من تلك الأخطاء أن أوردة الدم تنشأ فى الكبد ثم تتوزع على الأطراف .. ومنها أن الأعصاب ماهى إلا أنابيب جوفاء لنقل الروح الحيوانية ، ولكنها بعد الموت تتصلب وتنسد .. ومنها أن رحم المرأة له قرنان ، الأيمن منها لتكوين الذكور ، والأيسر لتكوين الإناث .. ومنها أن وظيفة الرأس إنما هى حمل العينين فقط !.

وكان جالينوس متعاليًا إلى حد كبير ، مفتخرًا بآرائه ونظرياته ، فقد كان يعتبر نفسه خاتم الأطباء وآخر الحكماء ، كما لم يتورّع عن توجيه النقد إلى أستاذه أبقراط ، الذى قال عنه يومًا :

« إن أبقراط كان أول من اهتدى إلى الطريق المستقيم ، ولكنه لم يسرعليه إلا خطوات يسيرة ، ثم تعثّر ، ولم يلم بالنقاط الهامة ، ولم يسلم من الغموض » .

ثم عرج على الفيلسوف أرسطو المعلم الأول ، فقال عنه : **« لقد زعمت يأأرسطو أن الأعصاب تنبت من القلب ، فلماذا اكتفيت بهذا القول ، دون أن تبين لنا كيف تتشعب منه » .**

ومهما يكن من أمر ، فقد تحلّى جالينوس بالروح العلمية ، واعتمد على التجربة والمشاهدة ، الأمر الذى كفل له زعامة الأطباء .

لاعجب إذن أن تفوق على سائر زملائه فى التشخيص .. فلطالما اعتمد الفراسة ودقة الملاحظة فى فحوصه ، حتى تسنَّى له أن يكتشف من أعراض العلة ما خفى على غيره .. فأصاب فى تشخيص الأمراض حيث أخفق الآخرون .

ومن التجارب العلمية التى تؤثر عن جالينوس تلك التى أجراها لإثبات أن وظيفة الكلى الرئيسية هى : استخلاص البول وتجميعه .. فقد ربط الحالبين ، فانتفخت الكليتان بالبول وتورمتا .. وثمة تجربة ثانية قطع فيها بعض أعصاب الرقبة ، فحل الشلل بالكتف .. تمامًا كما أكَّد قبل التجربة !.

وتذكر تجربة ثالثة ، عبث فيها جالينوس بالعصب الحنجرى ، فخفت الصوت ثم تلاشى وانعدم .. كذلك عمد إلى قطع بعض أعصاب القلب ، فأدى ذلك إلى توقفه .

وأثبت أن الأعصاب إنما تأتى من المخ لا من القلب ، كما اعتقد جمهور الأطباء والعلماء فى أيامه .. وهو الذى ابتكر أول طلاء (كريم) للجلد .

ويقال أيضا : إنه سبق وليم هارفى فى اكتشاف الدورة الدموية .

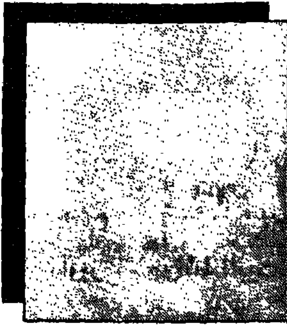
وفى السنوات الأخيرة من حياته ، لخص جالينوس تعاليمه الطبية فى كتابه « فن الطب » الذى ظل مرجعًا أساسيًا للطلبة حتى أواخر القرن السادس عشر .

واسم جالينوس هو النطق العربى لهذا الطبيب المتميز ، بالرغم من أنه فى أوربا يعرف باسم « جالين » Galen .. ومعنى الاسم فى لغة اليونان هو الهادئ أو الساكن ، ولكن بعضهم يترجمها إلى معنى الفاضل أو المحترم .. وهناك من الأوروبيين من يقول : إن معنى جالين هو الأشهر أو الأهم .

وآراء جالينوس ومكانتـه الطبيـة بدأت تتراجع بحلول القرن السـادس عشر ، وذلك بالثورة العلمية التى بدأها الشاب البلجيكى العالم « فيساليوس » Vesalius ، وبدأهـا بالرجـوع إلى الجسـم الإنسـانى ، بالتشـريـح ، يسـتقى منه علمه .. ورويداً رويداً تظهر أخطاء جالينوس ، ويظهر قصورها .. ورويداً رويداً يدخل الطب فى عصوره الحديثة ..

حتى لقد قسَّموا التاريخ الطبى إلى عهدين ، عهد ماقبل فيساليوس ، وعهد ما بعده .





جبران خليل جبران

(١٨٨٣- ١٩٣١)

شاعر وفيلسوف وفنان

- فى السادس من ديسمبر عام ١٨٨٣ ، وفى قرية « بشرِى » بلبنان ، ولد جبران خليل جبران ، ولو سمعت أمه كلام ابنها الصغير « بطرس » لسمت وليدها « عنتر » ، ولكن الأب يأخذ وجه بطرس بين يديه بحنان ويقول : « جبران اسمه .. جبران جد العائلة .. جبران أحسن من عنتر » !

وكانت والدة جبران « كاملة رحمة » متزوجة من « حنا عبد السلام رحمة » وكان رجلاً طيباً ، أخذها معه إلى البرازيل ، وتوفى هناك بعد أن وضعت له « بطرس » .. ثم تزوجت فى لبنان مرة أخرى من « خليل جبران » وكان رجلاً بسيطًا حسن المعشر ، يعمل عند بعض الإقطاعيين ، وكان قليل الكسب .. وقد أنجبت له كاملة جبران ، وابنتين أخريين هما « مريانا » و« سلطانة » وقد ازدادت مطالب الأسرة الصغيرة ، مما اضطر ابنها بطرس إلى التفكير فى السفر إلى أمريكا ، التى كان قد سبقه إليها الكثيرون من المهاجرين اللبنانيين طلبًا للرزق وسعيًا وراء المجد والحرية المنشودة .

وكانت أمه تمنعه فى كل مرة وتقف فى طريقه ، أما هذه المرة فنجدها تفكر طويلاً ، ثم توافق على سفر إبنها ، وتقرر أيضًا أن تصحبه ومعها إبنها الأصغر جبران ، وبنتاها مريانا وسلطانة ، ويقررون جميعا ترك الأب فى بلدته على أن يبعثوا إليه بما يكفل له حياه هنيئة وسهلة .

كان بطرس فى الثامنة عشرة من عمره ، وقد سرّه أن تفكر فيه أمه كرجل ، وأن تُلقى عليه مسئولية الرجال .. أما جبران فكان فى الثانية عشرة ، وكان قد بدأ ينجُب فى المدرسة ويُظهر ميلاً خاصاً إلى فن الرسم ، الذى لم يكن أبوه يفهم منه شيئًا ، بل كان يضربه على يديه عند مايجد دفاتره ملأى بالتصاوير ، وحوائط البيت ملوثة بخطوط الفحم والطباشير !.

كانت هجرة الأسرة إلى الولايات المتحدة فى عام ١٨٩٥ ، وقد نزلوا جميعًا فى مدينة « بوسطن » وبمعرفة بعض أبناء بلدتهم « بشرى » سكنوا حى الصينيين ، أحد الأحياء الفقيرة .. ونزل بطرس إلى معترك العمل فى الحال ليكفل للأسرة قوتها وليدخل أخاه جبران مدرسة البلدة ، وفيها نبغ فى دروسه ، وتمكن من إتقان الإنجليزية خلال عامين ، وأخذ يقرأ بها القصص والروايات ، وفى أوقات فراغه ، كان جبران يميل إلى الوحدة والعزلة والبعد عن أولاد الحى وبناته من الصينيين والأيرلنديين والسوريين .. كان يلجأ إلى كتبه ودفاتره وأقلامه ، ويرى فيها النقاء والطهر الذى ينشده .

ويبدو أنه قد بدأ اتصاله بالفنانين الأميركيين فى هذه السن المبكرة ، وذلك عندما زار مدرسته أحد الرسامين ، وعرّفته عليه معلمته ، وأرته بعض رسومه ، فأعجب بها ودعاه لزيارته ، وعن طريقه تعرف بإحدى الفنانات .

وكم كانت أمه تود لو أنفق أوقات فراغه فى مخزن أخيه بطرس ، ليعاونه ويتعلم منه التجارة ، علّها تنفعه فى المستقبل ، ولكنه كان يجيب أمه برفق : « ياللعيب ! أم جبران تقول هذا القول ؟ إصبع مصوّر يساوى ألف تاجر ياأمى - ماعدا بطرس !.. وصفحة من الشعر أثمن من كل مافى المخازن من الأنسجة ».

فتقول الأم فى قلق : « لكننا فى حاجة إلى المال » .. فيجيبها

جبران مطمئنًا : « **سآتيك بالمال ..لاتخافى .. إذا قصَّر بطرس فلن يقصِّر جبران »** .

وبعد ثلاث سنوات ، عاد جبران إلى لبنان ليتعلم العربية ، فالتحق بمدرسة الحكمة فى بيروت ، حيث أتقن العربية والفرنسية ، وتمرس بأصول الكتابة ، وعمد إلى دراسة الكتاب المقدس ونهج البلاغة وغير ذلك ، كما اطلع على آثار الرومانتيكيين الفرنسيين أمثال : هيجو و لامارتين و شاتوبريان و دى موسيه .

وكان جبران يتردد على مسقط رأسه ليزور أباه وأقاربه ، فتعلق قلبه بفتاة تدعى « سلمى كرامة » وأحبها حبًا كبيرً ، وكانت من أهل الغنى والنفوذ .. وقد حالت تقاليد الطبقات دون زواجهما ، فجبران من أسرة متواضعة ، بل فقيرة ، ولايليق بفتاة ثرية أن تتزوج به .. وقد كانت هذه الفتاة أول حب صادفه ، وقد أحبته هي الأخرى ، وعاهدته على الزواج ، غير أن أحد أصدقاء والدها خطبها لابن أخيه ، ولم يكن هناك مفر من القبول ، فتزوجت مكرهة ، ثم ماتت حزنًا وكمدًا .. وقد صوَّر بعد ذلك قصة حبه تلك فى كتابه « الأجنحة المتكسرة » .

وعاد جبران إلى بوسطن ، ففجع بموت أخته « سلطانة » التى قضى عليها داء السل ، فحزن كثيراً لذلك ، وأثر فيه غاية التأثير .. ولم يكتف هذا المرض بزيارة واحدة لهذا البيت ، بل كررها مرتين ، أخذ فيها أخاه بطرس وأمه التى كان يحبها من كل قلبه .

كان موت سلطانة فى ١٤ أبريل عام ١٩٠٢ ، وبطرس فى مارس عام ١٩٠٣، وأمه فى ٢٨ يونيه عام ١٩٠٣ أيضًا !. وكانت هذه الفترة القصيرة التى مرت على جبران كأتعس مايكون الزمان ، وأشقى ماتكون الساعات ، ولكنها أوحت له بالتأمل والتفكير والكتابة والرسم ، وبخاصة لوحته المعروفة التى سمّاها « عودة الروح إلى الله » وصورته الأخرى التى دعاها « فوّارة الألم » .

وأخذ جبران يكتب ويرسم ليكسب قوته ويتعاون مع شقيقته مريانا ، التى كانت تشتغل بإبرتها وتبيع ماتنتجه لقاء مبالغ زهيدة تنفق منها على البيت والغذاء والكساء ، وكان ذلك كثيراً على جبران ، فكان يسهر الليل ويرهق نفسه لكى يعمل وينتج .

وفى عام ١٩٠٥ أصدر أول مؤلفاته بالعربية ، وهو كتاب « الموسيقى » وأتبعه بكتابين آخرين ، إلا أن هذه الكتب الثلاثة لم تدر عليه شيئًا برغم مافيها من طلاوة الفن وحرارة العاطفة ، والتعابير والصور المستحدثة ، ومأضفاه على كتابته من تجاربه الحزينة وعواطفه الجياشة ومشاعره المرهفة المتأملة .ولم يقبل قراء العربية على كتبه إقبالاً يشجعه على المزيد ، فعمد إلى الرسم ، ظنًا منه أنه أغزر مورداً فى المحيط الأجنبى ، وراح يرهق قواه استعجالاً لذلك المورد ، حتى توافرت لديه مجموعة من الرسوم حملها إلى المعارض ، فلم تلق رواجًا فى بادئ الأمر ، حتى كان ذات يوم تعرف فيه على الآنسة الأميركية « مارى هاسكل » مديرة مدرسة البنات فى بوسطن ، وكانت تشاهد رسوماته التى عرضها فى بيت أحد المصورين ، فتقدم منها يستأذن فى شرح معانى الصور ، فاستمعت إليه شاكرة ، وعرّفته بنفسها ، ودعته لاقامة معرض فى مدرستها ، ونمت بينهما صداقة روحية عميقة ساعدت فى تشجيع جبران وتعريفه بالمصورين والدعاية ، وختمت مارى مساعداتها له بإرساله على نفقتها إلى باريس ليتعلم الرسم على مشاهير المصورين الفرنسيين .

وكان فرح جبران عظيمًا بهذه المنّة السماوية والنعمة الإلهية التى هبطت عليه فجأة وبدون مقدمات ، حتى لقد عدّ العام كله عامًا فاصلاً فى أعوام حياته .. وقد بعث برسالة إلى أحد أصدقائه يقول فيها عن ذلك : « لهذه السنة أهمية عظيمة بين سنى حياتى ، لأنها ستكون إن شاء الله بدء فصل جديد من رواية عمرى ؛ لأننى سوف أنضم فى تلك

المدينة العظيمة إلى لجنة تصويرية عظيمة ، وأشتغل تحت مراقبتها وأحصل على فائدة كبيرة من انتقاداتها وملاحظاتها فى هذا الفن الجميل » .

وسافر جبران إلى باريس ، وقضى هناك ثلاث سنوات كانت مارى هاسكل ، ملاكه الحارس ، ترسل له فى كل شهر خمسة وسبعين دولارًا ، تنزل عليه وكأنها هبة من السماء ، يعيش منها ويدفع نفقات دراسته ويرسل الباقى إلى أخته مريانا فى بوسطن ! .

وفى باريس تعرّف جبران على الفنان والنحّات الفرنسى الشهير « رودان » ، وتحدث معه ، ومن خلال حديثه تعرّف على الشاعر والفنان الإنجليزى « وليم بليك » وماكاد يسمع باسمه ويعرف سيرته حتى خرج يبحث عن كتب تصف حياته وفنه وشعره ، وظفر بها واطلع عليها بنهم ، وزاد إعجابه بالسيرة وصاحب السيرة ، وقد وجد فيها شبيهًا لروحه ومؤنسًا لوحدته وهتف من أعماقه : **« كنت أظننى غريبًا فى الأرض واليوم جاءنى بليك ليؤنس غربتى .. كنت أظننى تائهًا .. وهاهو بليك يسير أمامى » .**

ولم تكن مارى هاسكل المرأة الوحيدة فى حياة جبران ، بل كانت تتقاسم قلبه معها فى الفترة نفسها واحدة ، كانت هى السبب فى معرفته بها ، تلك هى الآنسة « ميشلين » المعلمة فى مدرسة هاسكل ، والتى أحبته وظلت تراسله فترة غيابه فى باريس ، بل ذهبت إليه هناك لتكون بجواره ، وكم تمنّى أن تبقى معه ميشلين ، ولكنها تريد الزواج ، وهو لايستطيع ، لقد ادعى بأنه يدرس على نفقة بعض أقاربه وأنهم سيكفّون عن الإنفاق عليه لو تزوّج ! .. وغضبت ميشلين وتركته إلى غير رجعة .

وانتهت سنوات دراسته ، وغادر باريس وعاد إلى بوسطن ، والتقى ثانية بمارى هاسكل ، ووجدها فى انتظاره ، وأملى عليه وفاؤه وتقديره لكل ماقامت به نحوه أن يعرض عليها الزواج .. وكم كانت دهشته عندما لمح منها بعض الشك والتردد ، فانسحب بانتظام ، وحمد الله الذى لم يسيره لعمل شىء يدفعه إليه عقله ويحجم عنه قلبه .

وفى خريف عام ١٩١٢ انتقل جبران من بوسطن إلى نيويورك ، وترك أخته مريانا مع دموعها الغزيرة وقلبها الحزين ، واتّخذ له مقراً فى حى « جرينتش » القديم المعروف بكثرة الفنانين بين ساكنيه وفى الدور الثالث من إحدى البنايات القديمة فى هذا الحى ، كانت صومعة جبران التى لزمها إلى آخر حياته ، وإلى هذه الصومعة حمل معه مخطوطة كتابه الجديد « الأجنحة المتكسرة » الذى أتم فصوله الأخيرة فى باريس ، وحمل معه كذلك كتاب الفيلسوف الألمانى الشهير نيتشه « هكذا تكلم زراد شته » والذى تأثر به كثيراً ، وبدا هذا التأثر واضحاً تماماً فى كتابه « النبى » .

فى هذه الأثناء كانت تعيش فى مصر فتاة عربية موهوبة ، عرفها أدباء مصر وكتَّابها فى ذلك الوقت ، ممن كانوا يحضرون صالونها الأدبى ، تلك هى الأديبة الألمعية الآنسة « مى زيادة » وكان لابد أن يتطرق الحديث فى صالونها إلى جبران وكتب جبران ، مما لفت نظرها ، فأخذت تقرأ له وتعجب بما كتب ، وتجد شبهاً بين أفكاره ومايدور فى رأسها من خيالات وتأملات .. فكتبت إليه أول رسالة فى أواخر شهر مارس عام ١٩١٢ ، تعرفه فيها بنفسها وتحدثه عن آثاره الأدبية ، وتلقى جبران الرسالة وكانت قد سبقتها إليه شهرة مى وذيوع اسمها فى عالم الأدب ، فاغتبط لتسلمها ، وكتب لها جواباً أرفقه بنسخة من كتابه الجديد « الأجنحة المتكسرة » وكتبت هى إليه شاكرة ومبينة رأيها فى القصة .

وتوالت الرسائل بينهما ، وازداد حنينه إلى الشرق وإلى لبنان ، وإلى رؤية مى ، وهى لبنانية أيضاً مثله .

وقد كتب إليها عام ١٩٢٥ يقول : « **سوف يجيء يوم أهرب فيه إلى الشرق .. إن شوقى إلى وطنى يكاد يذيبنى** » .. ولابد أن شوقه إلى مى كان جياشاً أيضاً ، ولكن أعماله ومشاغله فى الغرب حالت دونه ودون السفر إلى الشرق ، كذلك كان تأخر صحته من ضمن الأسباب التى وقفت فى سبيل أمنيته وقضت على أحلامه ، فتوفى من غير أن يراها .

كتب إليها فى أواخر سنوات حياته يقول : « **حبذا لو كنت مريضاً فى مصر ، قريباً من الذين أحبهم ، أتعلمين يا مى أنى فى كل صباح ومساء أرى ذاتى فى منزل فى ضواحى القاهرة وأراكِ جالسة قبالى تقرئين آخر مقالة كتبتِها أو مقالة من مقالاتكِ لم تُنشر بعد** » .

وقد عرف جبران نساء أخريات فى حياته ، إلا أن أكثر اللواتى أثرن فى حياته تلك هن أولئك الثلاث : سلمى كرامة ومارى هاسكل ، ومى زيادة .

وتعرف جبران إلى جماعة من الأدباء والشعراء اللبنانيين فى المهجر ، أمثال ميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وعبد المسيح حدّاد ، وإيليا أبى ماضى ، ورشيد أيوب وغيرهم .

وكان ينشر بعض مقالاته فى جريدة « المهاجر » التى أصدرها صديقه أمين الغُريِّب ، كما ساهم فى إنشاء مجلة « الفنون » التى أسسها نسيب عريضة وظلت تصدر فى نيويورك مابين عامى ١٩١٢ و ١٩١٦ ، وكان جبران من كتابها وشعرائها ورساميها .

وبعد توقفها حلت محلَّها جريدة « السائح » التى كان يملكها عبد المسيح

حدّاد ، وفيها ظلوا ينشرون مقالاتهم وقصائدهم ، ويزيّن جبران صفحاتها برسومه ، وبخاصة العدد السنوى الممتاز الذى كان يطلع على العالم الأدبى فى الشرق والغرب كحدث له أهميته وإشراقه .

وفى الثامن والعشرين من أبريل عام ١٩٢٢ أسست هذه الزمرة من الأصدقاء الأوفياء رابطة أدبية فى مدينة نيويورك سموها « الرابطة القلمية » ، وانتخبوا جبران عميداً لها ونعيمة مستشاراً ، ووضعوا لها قانوناً وشعاراً ، وقد اتفق الأعضاء جميعاً فى أن النفس أو الروح هى الشىء المهم فى أدب الرابطة « فالأثر الخالد لايموت ، والميت لايعيش ولايُخلّد من الآثار إلا ماكان فيه بعض الروح الخالدة » .

وفى تلك الأثناء كان جبران قد بدأ يكتب بالإنجليزية بتشجيع من مارى هاسكل ، وشيئًا فشيئًا بدأ الناس يقبلون على قراءة أفكاره فى الشرق والغرب ، واشتهر عالميًا ، حتى لقد ترجمت بعض أعماله إلى جميع اللغات الحية ! .

ومن العجيب ألا نلمح فى مؤلفاته الإنجليزية إلا أطياف المنطقة اللبنانية التى ولد فيها ، أطياف الليل والفجر والوادى والنهر والضباب والبحر ، ونسمع ناى الرّاعى وأناشيد الفلاحين فى حقولهم ومراعيهم .

وفى أخريات أيامه زاد حنينه إلى لبنان وتمنى العودة إليه والإقامة فيه للأبد ، فقد ضاق بأمريكا وبالأميركيين ، وضجة نيويورك وصخبها ، وبهذا العالم الغارق فى المادية والبعيد كل البعد عن الروحانية والشاعرية .

ولم تتحقق آمال جبران كما كان يحب ويتمنى ، ففى ليلة العاشر من أبريل عام ١٩٣١ ، شهد مستشفى القديس فنسنت فى نيويورك انطفاء الشعلة التى توهجت فى سماء الفكر والأدب فترة من الزمان ، وفى أغسطس من العام نفسه نُقل جثمانه إلى بيروت التى استقبلته فى احتفال مهيب ، ومنها إلى مسقط

رأســـه « بشـــرى » حيث دفن فى الصومعة التـى اختارها لنفسـه فى ديـر « مارسركيس » .. وقد عرفت قريته ، التى أحبها وأحبته قدره ، وصانت ذكره ومجدّت اسمه .. فالزائر إلى تلك القرية الوادعة يجد أكثر من مكان يحمل اسم جبران .. فإلى جانب متحف جبران المحيط بمدفنه ، هناك حديقة جبران ، وفندق جبران ، وقهوة جبران ،، إلخ .. وكأن اسمه علَم على القرية كلها ، ليس هناك أهم منه بين بنيها وأحفادها .

أما جبران نفسه فقد وفّى لقريته أيضًا حين أوصى – قبل موته – بريع كل كتبه ورسومه وآثاره لبلدته الجميلة ومشاريعها المختلفة .

أما التراث الأدبى والفنى الذى تركه جبران فهو كبير وعميق الأثر .. ففضلاً عن آثاره فى التصوير والنحت ، فقد كان له طائفة من الآثار الأدبية باللغتين العربية والإنجليزية .وقد طغت شهرته كأديب وشاعر على شهرته كرسام ، مع أنه قد ترك لوحات غاية فى الإبداع .

ومن مؤلفاته بالعربية :

– **الموسيقى** : ويتحدث فى هذا الكتاب عن الألحان الموسيقية الشرقية ، فيخلطها بنفسه ويصوّر انفعاله الخاص بها .

– **عرائس المروج** : هو ثلاث قصص (رماد الأجيال ، مرتا البانية ، يوحنا المجنون) ، استمدها من الحياة اللبنانية ، تعبر عن رأى جبران فى الحياة وعن ثورته على ظلم المجتمع وفساده ، وعلى الإقطاعية .

– **الأرواح المتمرّدة** : ينطوى هذا الكتاب على أربع أقاصيص هى : وردة الهانى ، مضجع العروس ، صراخ القبور ، خليل الكافر .. وهو يتحدّث عن أرواح تمردت على التقاليد البالية والأعراف المتحجرة .

- **دمعة وابتسامة** : ضمّن جبران هذا الكتاب ستًا وخمسين مقطوعة قصيرة هى أقرب إلى القصائد النثرية وإلى الأدب الوجدانى الرومانتيكى .

- **المواكب** : الكتاب عبارة عن قصيدة طويلة تقع فى مائتين وثلاثين بيتًا من الشعر ، وترمى إلى غرض فلسفى ، وفى القصيدة صوتان ، الأول صوت شيخ خبر الأيام فنضج تفكيره وبرزت حكمته ، والثانى صوت شاب يمثل الطبيعة ببساطتها وطهرها ، حيث لاحكمة ولا فلسفة ، وتدورالقصيدة حول موضوعات الحياة الكبرى كالخير والشر ، والعدالة والظلم ، والحرية والعبودية ، والرحمة والقسوة ، والحب والحقد ، والفرح والحزن ، والحياة والموت .

- **الأجنحة المتكسرة** : من أشهر قصص جبران التى أهداها إلى مارى هاسكل .. وقال فى الإهداء : « **إلى التى تحدّق بالشمس بأجفان جامدة ، وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة .. إلى مارى هاسكل** » .. ويروى جبران فى هذا الكتاب حكاية حبه الأول فى لبنان ، ومارافقه من عذاب واستخلصه من نتائج .

- **العواصف** : هذا الكتاب هو مجموعة مقالات تتضمن ثورة جبران على الضعف والفساد وذل النفوس ، وفيه يظهر اعتناقه لمذهب القوة ، وفى العواصف صور لمآسى الشرق ومعاناة أهله الظلم والاستبداد والجوع والبؤس ، ومن خلال ذلك يظهر تفكير جبران الفلسفى والاجتماعى ونزعته إلى الرومانسية .. ومن مقالات الكتاب : حفّار القبور ، العبودية ، أبناء الآلهة ، يابنى أمى ، المخدرات ، الأضراس المسوسة ، الشيطان ، الجبابرة ، العاصفة ، على باب الهيكل ، البنفسجة الطموح .

أما مؤلفات وكتابات جبران التى كتبها بالإنجليزية فهى : السابق ، المجنون ، رمل وزبد ، حديقة النبى ، آلهة الأرض .

أما درة مؤلفاته على الإطلاق ، وسبب شهرته العالمية ، فهو كتاب « النبى » ، وقد كتبه بالإنجليزية ، ليتوجه به إلى العالم أجمع ، بعد ماكانت كتاباته العربية وقفًا على لبنان والعالم العربى .. وقد ترجم إلى عدة لغات ، وطبعت منه بالإنجليزية ملايين النسخ ، وأعيد طبعه أكثر من ستين مرة ، وفى ذلك الحين كتبت جريدة نيويورك هيرالد عن جبران : « **إنه نابغة ستين مليوناً من الشرقيين المتكلمين بالعربية** » .

كذلك كان سببًا فى تنبه الشرقيين والعرب إلى نبوغه وعبقريته فراحوا يترجمون كتبه الانجليزية إلى العربية ، ويزداد إقبالهم على قراءة كتبه الأصلية .

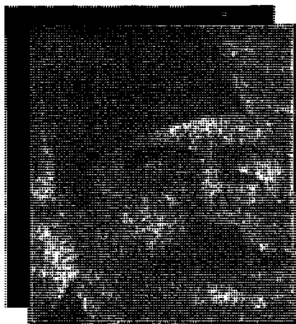
وفى كتاب « النبى » هذا ، يتحدث جبران عن رجل يدعى « مصطفى » ، جعل روحه نيرة شفافة تفيض بالحكمة والفلسفة ، وقد قضى اثنى عشر عامًا فى مدينة تسمى « **أورفليس** » ينتظر أن تعود به سفينة لتحمله إلى الجزيرة التى ولد بها .. وفى يوم يرى من فوق إحدى القمم سفينة مقبلة ، فيهبط إلى المدينة ليودّع أهلها ، فيخرج إليه أهلها مرحبين به ويرجونه ألا يترك بلدهم ، فقد أحبوه وألفوا عشرته ، وتبرز من بينهم عرّافة تدعى « ألميترا » ، يعزها مصطفى ويقدّرها ، لأنها كانت أسبق الناس إلى اكتشافه والإيمان به حين لم يكن قد مّر عليه فى مدينتهم ، إلا يوم واحد، وتطلب إليه ألميترا أن يحدثهم قبل الوداع عن أنفسهم وعن كل مابين الولادة والموت ، بادئة بالمحبة .

ويتحدث إليهم المصطفى بعد المحبة عن الزواج والأولاد والعطاء والغذاء ، وعن العمل والفرح والترح ، وعن البيوت والثياب والبيع والشراء ، ثم عن الجرائم والعقوبات ، والشرائع ، وعن الحرية والعقل والعاطفة ، ثم تحدث عن الألم ، وعن معرفة النفس ، والتعليم ، والصداقة ، والخير ، والشر ، والصلاة واللذة ، والجمال والدين ، وأخيراً عن الموت .

إن كتاب النبى هذا هو خلاصة ماوصل إليه جبران من تفكير وفلسفة .

ويذكر ميخائيل نُعيمة ، صديق جبران الأثير وكاتب قصة حياته ، أن مصطفى فى كتاب النبى هو عينه جبران .. وأن « ألميترا » هى مارى هاسكل التى فطنت إلى عبقرية جبران فأعانته وساعدته .. وأن « أورفليس » التى كان فيها مصطفى غريباً هى نيويورك أو أميركا .. وأن الجزيرة التى ظل اثنتى عشرة سنة يتلهف على العودة إليها هى لبنان !.





محمد فريد

(١٨٦٨-١٩١٩)

زعيم خليفة زعيم

- فى مساء يوم السبت ١٥ نوفمبر عام ١٩١٩ ، قال الزعيم محمد فريد ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فى برلين بألمانيا : « **إني أنا وأولادي وكل عزيز لديّ فداء لمصر ، لقد قضيت بعيدًا عن مصر سبع سنوات ، فإذا مت فضعوني في صندوق واحفظونى فى مكان أمين حتى تتاح الفرصة لنقل جثمانى إلى وطنى العزيز الذى أفارقه ، وكنت أود أن أراه** » .

ثم أسلم الروح .. وشيعت جنازته فى برلين .. وبعد ما يقرب من ستة أشهر نقل رفاته إلى مصر تاجر من الزقازيق يُدعى الحاج « خليل عفيفى » ، تبرع لنقل رفات الزعيم بماله الخاص .

وكانت الباخرة التى تحمل الرفات ، قد رست بميناء الاسكندرية وشيعت الجنازة فى مهابة وإجلال ، وحضرها وفود جميع بلدان الوطن ، يذرفون الدمع على روح ذلك الزعيم ، ويذكرون وقفاته ونضاله ومآثر كفاحه .. وقد ولد محمد فريد يوم الاثنين ٢٠ يناير عام ١٨٦٨ بمدينة القاهرة .. وكان والده أحمد فريد باشا ناظرًا للدائرة السنية .

درس فى المدارس الابتدائية ، وواصل دراسته فى مدرسة الثانوية الخديوية ، ثم التحق بمدرسة الحقوق الخديوية وحصل منها على الليسانس

عام ١٨٨٧ .. وقد عمل بوظيفة مترجم بقلم قضايا الدائرة السنية ، ورقى إلى درجة وكيل لهذا القلم ثم رئيسًا له .

وفى عام ١٨٩١ نقل إلى النيابة العامة ، وظل يتدرج فى وظائفها حتى أصبح وكيلاً لنيابة الاستئناف .. وقد جنح فطريًا إلى مجال الجهاد الوطنى ، إذ بدأ يكتب للصحف ويراسلها فور تخرجه فى مدرسة الحقوق ، كتب فى « المؤيد » ، وكتب فى « اللواء » جريدة الحزب الوطنى ، وكتب عن رحلاته التى قام بها إلى ربوع أوربا وإلى أقطار شمالى أفريقيا حيث يتربع الاستعمار الفرنسى ، كما أنشأ صداقات مع المجاهدين فى هذه الأقطار وفى الأقطار العربية الأخرى تهدف إلى وحدة إسلامية جامعة .. وكتب ينمى الإدراك فى الرأى العام ، وينبه الأذهان إلى الطفرات الدولية التقدمية .

وبدأت ميوله الوطنية تظهر فى سلوكه أثناء عمله فى النيابة العامة ، حيث قد ناصر وظاهر بعض المتهمين فى إحدى قضايا النشر ، فسخط عليه الإنجليز وطالبوا النائب العام بنقله ، فنقل إلى نيابة بنى سويف ، فلم يتردد محمد فريد فى الاستقالة ، احتجاجًا ، لأنه عد النقل عقوبة وحجرًا على حرية الرأى .

واشتغل بالمحاماة أمام المحاكم الوطنية والمحاكم المختلطة ، ولكنه فى عام ١٩٠٤ ، رأى أن يتفرغ لقضية الوطن فاعتزل المحاماة ، وازداد اتصالاً بالزعيم مصطفى كامل وبالحزب الوطنى ، وأعلن ذلك صراحة فى مقال له نشره بجريدة اللواء .. وكانت صلته قد بدأت بالزعيم مصطفى كامل عام ١٨٩٣ ، ثم تطورت الصلة إلى صداقة قوية فى أوربا عام ١٨٩٥ ، ثم تحولت إلى عهد وميثاق بينهما على الاستماتة فى الدفاع عن قضية مصر .

وقد أصدرا معًا صحيفتين باللغتين الفرنسية والإنجليزية ، كما ساهم بنصيب مالى كبير فى إنشاء صحيفة اللواء ، حرصًا منه على إنجاح كل وسيلة ونصرتها .

ولما سافر مصطفى كامل للدعوة للقضية الوطنية فى صيف عام ١٩٠٧ ، أناب عنه محمد فريد ، فى إدارة الصحف الثلاث الناطقة باسم الحزب ، ورأى فيه مصطفى كامل خير خلف له ، فاختاره وكيلاً للحزب فى أول جمعية عمومية ، كما أوصى بانتخابه رئيساً من بعده .

وبالفعل ، بعدما توفى مصطفى كامل يوم ١٠ فبراير عام ١٩٠٨ ، أجمع أعضاء الحزب على اختيارمحمد فريد رئيساً للحزب خلفاً لمصطفى كامل .. وقد أصدر بياناً للأمة ضمنه مبادئ الزعيم الراحل ، ووعد ببذل أقصى الجهد لحفظ التماسك والتضامن ، وأن تكون غايته « مصر للمصريين » ، ومبدؤه « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » .

وحمل عبء الزعامة بعد مصطفى كامل فى مثالية وتفان وإخلاص ، فأشرف على تحرير الصحف الثلاث ، ووجه سياستها فى السبيل الذى رسمه الزعيم الراحل ، واشترك فى تحريرها بالعربية والفرنسية ، كما أنشأ نادياً للحزب وأشرف عليه ، واضطلع بكل هذه الأعباء التى استوعبت وقته وجهده وماله دون اهتمام بمصالحه الخاصة .. وعارض سياسة الوفاق بين الخديوى عباس الثانى والمعتمد البريطانى السير « جورست » ، وتزعم مبدأ وجوب الجلاء ، وتصدى لباقى الأحزاب التى رفضت فكرة الجلاء ، وآمنت بالمهادنة والوفاق والمسالمة .

وأصر محمد فريد ورجال الحزب الوطنى على مقاومة الاحتلال وما يفرضه من التزامات وقيود ووسائل إرهابية ، فاجتمع الحزب ليحتج على إنشاء المحكمة المخصوصة التى شُكلت لمحاكمة من يُتهم من المصريين بالتعدّى على ضباط وجنود جيش الاحتلال ، وهى المحكمة التى أصدرت حكمها الظالم المجحف فى حادثة دنشواى المشئومة ، وأرسل محمد فريد خطاباً وطنياً قوياً إلى الخديوى

يستنكر فيه بشدة إنشاء مثل هذه المحكمة ، التى رسبت فى نفوس المصريين آلامًا لا تُنسى بأحكامها الوحشية ، ومن مفاخر محمد فريد توجيه الأمة والرأى العام للمطالبة بالدستور ، دعا لذلك خطيبًا وكاتبًا وفى نشرات مطبوعة .

ورأى أن ينقل جهاده إلى أوربا ، كما كان يفعل مصطفى كامل ، فسافر إليها فى عام ١٩٠٨ ، وطاف بفرنسا وإنجلترا وسويسرا ، وكتب المقالات والأحاديث فى الصحف تعريفًا بالقضية المصرية والدفاع عنها والتنديد بالاحتلال البريطانى والمطالبة بالجلاء عن مصر .

وعاد من جولته تلك ، واستقبل فى الاسكندرية استقبالاً حماسيًا رائعًا ، فألقى الخطب مطالبًا بالدستور وداعيًا إلى وحدة الأمة وخروج الإنجليز من مصر .

كما ندّد بموقف الخديوى عندما وقف تحت العلم البريطانى يوم الاحتفال بعرض القوات الإنجليزية .. وعندما تألفت وزارة بطرس غالى فى نوفمبر ١٩٠٨ بادر محمد فريد إلى مطالبة الوزارة الجديدة بإعلان الدستور .. كما احتج على اتفاقية السودان التى بمقتضاها صار لبريطانيا حق غير مشروع فى حكم وإدارة السودان مع مصر .

كلما رأى الحزب وجوب الإسهام فى تثقيف الشعب ، فأنشأ المدارس الليلية المجانية وتطوع شباب الحزب للتدريس فيها .. كما طالب الحزب بلسان محمد فريد لأول مرة فى مصر بإنشاء نقابة للعمال تدافع عن مصالحهم ، وترتقى بأحوالهم .. وجدد محمد فريد الاحتفال بالعام الهجرى فى صورة وطنية رائعة جعلها مهرجانًا ثائرًا للمطالبة بحقوق البلاد .. وجعل ذكرى وفاة مصطفى كامل موكبًا شعبيًا ثائرًا ، ومنبرًا للخطابة

والشعر فى معنى الجهاد من أجل مصر . واحتج فى شدة على إحياء قانون المطبوعات الذى يحد من حرية الصحافة .

وفى إبريل عام ١٩٠٩ سافر إلى الآستانة ، حيث قام بمراسلة صحيفة حزبه « اللواء » بأخبار الإنقلاب الذى أطاح بالسلطان عبد الحميد ، كما حرص على لقاء الأحرار من الأتراك وتعريفهم بمقاصد الحركة الوطنية ، وإحباط مساعى بريطانيا التى كانت تريد حمل تركيا على الاعتراف بوجود الاحتلال البريطانى فى مصر .. وعاد من تركيا بعد دعاية مثمرة فى صحفها وبين رجالاتها ، ثم سافر إلى جنيف بسويسرا لحضور أحد المؤتمرات ، وخطب فيه بالفرنسية ضد الإحتلال ، وتلقى فيه رسائل من الأجانب والإنجليز الأحرار الذين يرفضون فكرة الإحتلال ، ثم سافر إلى باريس ومنها إلى لندن لمواصلة الجهاد ، حيث التقى بالسيد « ولفرد بلنت » نصير القضية المصرية .

وعاد إلى مصر وواصل كفاحه الوطنى فى خطب ضافية ثائرة وفى مقالات صحفية يستنير بها الرأى العام . وطالب ملحًا فى أن يكون التعليم الإبتدائى إلزاميًا ومجانيًا لكل مصرى ومصرية ، وطالب تخفيف عبء الضريبة عن كاهل الفلاح ، ووجوب حماية العمال ورعايتهم .

وحارب فى شدة وفى ثورة عارمة مشروع مد إمتياز قناة السويس من عام ١٩٦٨ حتى عام ٢٠٠٨ ، نظير أربعة ملايين جنيه تدفع للحكومة المصرية ، وحصة مئوية هزيلة من الأرباح !

حارب تلك الإتفاقية التى حاولت وزارة بطرس غالى أن توقعها خفية ، فحصل محمد فريد على نسخة من الإتفاقية ، ونشرها على الرأى العام فى ثورة ساخطة ، فاغتيل بطرس غالى ، وتم رفض المشروع المُجحف بالبلاد بفضل محمد فريد وثورته عليه مع الحزب الوطنى .

وفى أوائل مايو عام ١٩١٠ ، سافر إلى أوربا مرة أخرى ، لمواصلة دفاعه عن قضية مصر ، فخطب ونشر وكتب البيانات فى باريس وليون ولندن ، وفى المؤتمر البرلمانى الذى عقد فى بروكسل .

وفى غيبته تلك ، جرت محاكمة الشيخ « الغاياتى » على كتابه « وطنيتى » الذى أصدره وفيه تنديد بالإستعمار ، وكان محمد فريد قد كتب له مقدمة يؤكد فيها الإسهام فى الثقافة والتعليم .. وحكم على الغاياتى بالسجن .. ولما عاد محمد فريد من أوربا قُدم للمحاكمة لاشتراكه فى مقدمة الكتاب ، وحكم عليه بالسجن ظلمًا واعتباطًا لمدة ستة أشهر .

وفى السجن ، شعرت الوزارة بحرج بالغ بسبب سخط الرأى العام عليها وحاولت استرضاءه بالوعد بالعفو عنه ، فأبى ذلك فى إصرار ، وأوفد إليه الخديوى أحد رسله يطلب منه توقيع رغبة بالعفو ، فرفض محمد فريد ذلك ، وحرم على أحد من عائلته أن يطلبه .

ولما خرج من سجنه فى ١١ يولية عام ١٩١١ ، كتمت الحكومة أمر خروجه ، ولكن الخبر عُرف ، فتوافدت عليه الوفود هاتفه مهنئة .

ثم سافر إلى روما لحضور أحد مؤتمرات السلام ، ليعرض قضية مصر ، ويطالب بالجلاء .. وناصر الليبيين فى حربهم ضد إيطاليا ، ووجه الرأى العالمى لنصرة العرب فى ليبيا ، ومدهم بالمال والرجال والتأييد .

ضيقت عليه سلطات الإحتلال والحكومة الخناق ، بسبب ثورته الداخلية والخارجية ، فاضطر إلى الهجرة خارج مصر ، ليواصل جهاده ، فسافر إلى الآستانة ، ثم إلى باريس ، ومنها إلى جنيف .

وبعد نفيه هذا ، ساد البلاد جو من الرهبة ، وقامت الحكومة لمحاكمة كثيرين من رجال الحزب الوطنى .. أما هو فأخذ يجول فى أوربا معلنًا الحرب على الإحتلال الإنجليزى ، وكان على إتصال بالحزب فى مصر ، وأيد سعد زغلول فى انتخابه عن دائرتى السيدة زينب وبولاق .

وكان الخديوى عباس يوفد رسله للصلح مع محمد فريد ، ولما علم بوجوده فى الآستانة ، التقى به الخديوى ، وأعطاه وعداً بإصدار الدستور بعد إتمام الصلح بينهما ، وأصدر الخديوى منشوراً وهو فى تركيا يعلن فيه الدستور ، ولكن بريطانيا أعلنت حمايتها على مصر عام ١٩١٤ ، وخلعت الخديوى عباس من العرش .. وظل محمد فريد يحارب الإنجليز ، وأنشأ فى چنيف جريدة أسبوعية بالفرنسية أسماها « صدى مصر » ، كما تقدم بمذكرة مسهبة إلى الدول المحاربة المحايدة فى الحرب العالمية الأولى ، وذلك فى أكتوبر عام ١٩١٧ ، طالبًا إقرار مبدأ إستقلال مصر عند إنعقاد مؤتمر الصلح .. ثم أرسل تقريراً فى ديسمبر عام ١٩١٨ ، فى مؤتمر الصلح بباريس إلى الرئيس الأمريكى «ويلسون» عقب وصوله إلى باريس ، ثم أتبعه تقريراً ثالثًا فى يناير ١٩١٩ .

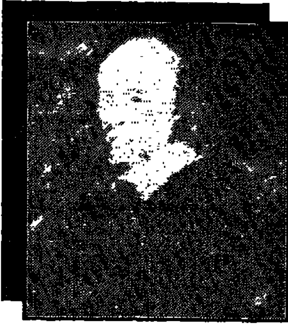
ولما علم بقيام الثورة فى مصر عام ١٩١٩ ، باركها ثم بعث بتهنئة لسعد زغلول ، وأعضاء الوفد المصرى ، وتمنَّى لهم التوفيق فى سعيهم من أجل قضية الوطن .

وبعث بنداء إلى الأمة فى ١٤ من سبتمبر من نفس العام ، وبمناسبة ذكرى الإحتلال الإنجليزى ، وهو فى إحدى مستشفيات سويسرا ، جاء فيه : « أكتب هذه السطور وذكرى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ تملأ فؤادى حزنًا وأسى . ولكنى أرى فجر الأمل يرسم على الأفق خطًا من النور اللامع .. تأمل أن يكون طليعة حريتنا المنشودة واستقلالنا المرجو » .

وكان قد تردد على عديد من البلدان للإستشفاء من مرض الكبد الذى كان يعانى منه ، وقد اعتلت صحته واشتد عليه المرض فوافاه الأجل المحتوم فى برلين .

ووصفه المؤرخون المصريون بأنه الزعيم والبطل والشهيد ، والفدائى الذى استبسل فى سبيل نصرة وطنه واستقلاله ، مضحيًا براحة نفسه وذاته وماله وولده ، كل ذلك ليضرب للمصريين مثلاً نبيلاً رائعًا فى معنى الإخلاص للوطن ، وافتدائه ، وإنكار الذات من أجله .





وليم هارفى

(١٥٧٨ - ١٦٥٧)

مكتشف الدورة الدموية

- والدورة الدموية التى اكتشفها هى الكبرى .. أما الدورة الدموية الصغرى فمكتشفها هو الطبيب العلاّمة المسلم : علاء الدين أبو الحسن على بن أبى الحزم ، المعروف بابن النفيس (١٢١٠ - ١٢٩٨) .. وقد ظل أمر كشفه هذا مجهولاً مدى قرون وأجيال ، ونُسب الفضل كله لوليم هارفى William Harvey .

حتى جاء عام ١٩٢٤ ، وكشف أحد الباحثين عن مخطوطة فى إحدى مكتبات برلين بألمانيا ، أرجعت الحق لابن النفيس ، ولم تنكر كذلك فضل العلاّمة الإنجليزى هارفى .

ومن الأمور المسلَّم بها اليوم أن الدم يمر عبر أجسامنا عن طريق قنوات محددة ، هى الأوردة والشرايين ، وأن القلب عضو عضلى يساعد على استمرار هذه الدورة بعمله كمضخة .. ومع ذلك فليس من السهل إظهار عمل هذه الدورة لأنها تستمر مادام الإنسان أو الحيوان حيًا .

ويعتبر اكتشاف هذه الحقيقة على يد وليم هارفى - ومن قبله ابن النفيس- هو الأساس الذى قامت عليه كل المعلومات اللاحقة عن الجهاز الدموىّ والقلب .

وقد ولد هارفى عام ١٥٧٨ فى بلده « فولسكتون » ، وتلقى تعليمه فى كلية « كايوس » بجامعة كمبردج .. ثم سافر إلى إيطاليا ليدرس الطب فى جامعة

«بادوا» .. وما يزال شعاره معلقًا فى قاعة الجامعة تكريمًا لواحد من أعظم طلابها .

وفى عام ١٦٠٧ قُبِل فى الكلية الملكية للأطباء بلندن ، وبعد عامين عُين فى وظيفة طبيب مستشفى « سان بارتلوميو » فى لندن كذلك .

وفى عام ١٦١٦ بدأ فى إلقاء مجموعة من المحاضرات عبَّر فيها عن آرائه فى حركات القلب ، وحركة الدم فى القلب والأوردة والشرايين .

ثم نشر هذه المحاضرات الهامة فى كتاب بعنوان « دراسة فى تشريح حركة القلب والدم عند الحيوانات » عام ١٦٢٧ ، وقد كان أساس شهرته بعد ذلك ، واعتبره العلماء أهم كتاب فى تاريخ علم وظائف الأعضاء ، بل بداية هذا العلم .

وقد تشكك عدد كبير من الأطباء فى صحة ما جاء فى هذا الكتاب وقتها ، وأن للدم دورة ، وأنه يدخل القلب ويخرج منه ، وأن القلب هو سبب هذه الدورة الدموية .. ولكن عند وفاة هارفى ، ثبت لدى العلماء أن الرجل على حق ! .

وكان هارفى من أعظم أطباء عصره ، وقد عُين بأمر ملكىّ طبيبًا لملك بريطانيا چيمس الأول ، ثم للملك تشارلز الأول .

وقبل موته ، نشر عملاً آخر يشمل دراسات فى التكاثر الحيوانى .. وعلى الرغم من أن هذا العمل أطول من بحثه الخاص بالدورة الدموية ، إلا أنه يأتى فى مستوى الأهمية من ناحية المادة التى أضافها إلى العلم .. وهذا الكتاب اسمه « توالد الحيوانات » ، وظهر عام ١٦٥١ ، ويدل على البداية الحقيقية لعلم الأجنَّة .

وكانت حياة هارفى ممتعة وهادئة وناجحة أيضًا .. وقد تزوَّج ولم ينجب أولادًا .

لقد كانت الأفكار حول حركة الدم فى الجسم الحىّ مبهمة إلى حدٍّ كبير – لدى علماء أوربا – حتى القرن السادس عشر .. فقد كان معروفًا أن الدم ليس راكدًا ، وأنه يتدفق فى الأوردة والشرايين من دون أن يتخذ اتجاهًا واضحًا .. وأن الطعام يتحوّل إلى دم داخل القلب ! وهذا الدم يعلو ويهبط فى الشعيرات والشرايين متجهًا إلى القلب أحيانًا ، ومبتعدًا عنه أحيانًا أخرى .

وكانت هذه الآراء السائدة مستمدّةً من نظريات الطبيب الإغريقى القديم « جالينوس » ، الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد .

ولا يمكن أن نفهم عمل هارفى ما لم نُلقِ نظرةً سريعة على أقسام القلب.. فهو مقسّم إلى أربعة تجاويف هى : الأُذَين الأيمن والأيسر ، البُطَين الأيمن والأيسر .. والبُطَين غليظ الجدران وعضلىّ ؛ لأنه يضخ الدم لمسافة أطول .. ويتصل كل بُطَين بالأُذَين المقابل له عن طريق فتحة أو صمام .. ولكن جداراً أو حاجزًا يفصل ما بين البطَين والآخر ، كما أن كل أُذين منفصل عن زميله بالطريقة نفسها ، ويدخل الدم إلى الأذين عن طريق الأوردة ويُضخ خارج القلب عن طريق الشرايين .

فلنتتبع عينة صغيرة من الدم دخلت لتوها إلى الأذين الأيمن بعد أن مرت بالجسم .. إنها تمر من خلال الصمام إلى البطين الأيمن الذى ينقبض ويدفعها خلال شريان إلى الرئتين .

وفى الرئتين تتخلص من ثانى أكسيد الكربون ، وتحصل على الأكسجين اللازم لحرق المواد الغذئية بالخلايا ، وتعود عن طريق وريد إلى الأذين الأيسر ، ومنه تمر إلى البطين الأيسر ، حيث يضخها داخل شريان كبير – الأورطى – إلى جميع أجزاء الجسم .. وبعد أن تفقد ما تحويه من أكسجين ، تعود إلى الأذين الأيمن لتعيد الدورة من جديد .

وكانت هذه طريقة العمل التى قدمها هارفى فى بحثه ، وكانت وقتئذ شيئًا جديدًا تمامًا بالنسبة إلى علوم الطب والتشريح .

وفى أبحاثه حول هذا الموضوع ، قام هارفى بتشريح عدد كبير من الحيوانات الميتة والحيَّة مثل الكلاب والخنازير وغنى عن البيان أنه قام بتشريح الجثث البشرية أيضًا .. وقد كلفه هذا الكشف تسع سنوات من البحث والاهتمام والعمل الدؤوب .

وكان عمله ، أو كشفه ، غير مكتمل من ناحية واحدة ، إذ فشل فى الكشف عن الطريقة التى يُنقل بها الدم من الشرايين عائدًا إلى الأوردة .. وكان لعالم التشريح الإيطالى « مالبيجى » أن وضَّح هذه النقطة عندما اكتشف الأوعية الدموية الشعرية ، بعد أربع سنوات من وفاة هارفى .

ويُروى أن هارفى كان من الممكن أن يصبح تاجرًا مثل والده ، الذى كانت أمنيته أن يورث ابنه تجارته الناجحة ، تلك التى لم يكن يريد لها أن تموت ، عندما يتقدم به العمر وتقعده السنون عن مزاولة المهنة التى احترفها .

ولكن هارفى الصغير لم يكن يميل كثيرًا إلى العمل مع أبيه فى التجارة ، فكان يهرب من المَتْجَر ، ويذهب إلى المدرسة التى لم يكن يدخلها إلا القادرون ، وهى مدرسة كنجز School Kings ، فى مقاطعة كانتربرى .. إلى أن جاء يوم ، اكتشف فيه الأب سر تغيب ابنه عن المتجَر ، عندما شاهده يحمل كتبه عند موعد الإنصراف من المدرسة .

ويومها عرف الأب أن زوجته وأم ابنه ، كانت هى وراء هذه « المؤامرة » ، فكانت تدفع مصروفات دراسة ابنها سرًا دون أن يعلم الوالد بشىء مما يدور حوله ! .

وسلك الفتى سبيل العلم حتى غدا واحداً من أعظم أطباء العالم كله .

ويُروى أيضاً أنه عندما كان الطبيب الخاص للملك « چيمس الأول » ، ملك الإنجليز ، لم يكن يمر أسبوع دون أن يزوره هارفى ليطمئن على صحته ، يبدد مخاوفه التى كانت تلازمه دائماً وتصوّر له أن ملَك الموت يتربّص به كل لحظة !.

ولم يكن الملك مريضاً ، ولكنه الوهم الذى استبد به ، ولم يستطع أن يُخلّص نفسه منه حتى آخر أيام حياته .

حدث يوماً أن تلقى وليم هارفى رسالة عاجلة حملها إليه رسول خاص من الملك .. وفض هارفى الرسالة ، فإذا بها تحمل إستغاثة من الملك يقول فيها : « تعال فوراً .. فإننى أشعر بدنو أجَلى » .

وابتسم هارفى ، فقد تعوّد مثل هذه الإستغاثات ، ثم جلس إلى مكتبه وراح يسجل الكلمات التالية : « **مولاى .. لقد أشرقت الشمس بعد غيبة طويلة .. وأنا عاجز عن أن أمنع عنك شبَح الموت الذى يتهددك ، إلا إذا استمعت إلى نصيحتى بوصْفِى الرّجل الذى يسهر على علاجك وراحتك .**

اترك فراشك يا مولاى ، واتجه إلى النافذة ، وابحث عن جيادك الأصيلة التى تعودت رؤيتها كل يوم ، وهى ترعى وسط المروج الخضراء من حولك .. تَطلّع إليها جيداً ، وسوف تجد عندها الشفاء من علّتِك » .

وقرأ الملك الرسالة ، فأرغى وأزبد .. فكيف تصل الجُرأة بطبيبه هذا الحد ؟! .

ولكنه ما لبث أن وجد نفسه ، بالرغم منه ، يتجه إلى نافذة حجرته ، وينظر من ورائها .. وأذهله ما رأى من أمر جياده .. لم تكن متخاذلة كعهده بها طوال الأيام الماضية التى اشتدت فيها وطأة البرد .. وإنما كانت تجرى وتمرح حول قصره المنيف .

وأشرق وجه الملك بابتسامة عريضة ، وأسرع يرتدى ملابسه ، ثم نظر إلى الرسول وقال : « أين أجد السيد هارفى الآن ؟ » .

– فى بيته يا مولاى .

– إذن قل للحوذى أن يعد العربة فأنا ذاهب إليه .

وعند الباب الخارجى لبيت طبيبه الخاص ، وقف هارفى باسطًا ذراعيه لاستقبال الملك ، الذى تقدم إليه فى خطى سريعة ثابتة ، والتقى الإثنان فى عناقٍ طويل ! .

ثم قال الملك وهو يبتسم : « حقًا إنه يوم جميل » ! .

وقد كان هارفى يحلم بأن يصبح أبًا ولو لطفل واحد .. ولكن حلمه لم يتحقق . وقد تزوج بعد تخرجه من « إليزابيث براون » Elizabeth Browne بعد قصة غرام عنيف دامت لبضع سنوات .. وكانت هذه الفتاة الطبيبة الخاصة التى كانت تشرف على علاج الملكة إليزابيث ، ملكة بريطانيا .

وقد توفيت إليزابيث بعد زواج طويل دام لأكثر من خمسين عامًا ، وحياة طيبة هادئة مع زوجها الطبيب هارفى .. ولم تكد تنقضى بضع سنوات على وفاة زوجته ، حتى أصيب بشلل تام ، فلزم فراشه غير قادر على الحركة أو الكلام .

وعنـدمـا أحس بدنو أجله ، طلب من المـرضـة التى كـانت تسـهـر على راحتـه أن تعطيـه ورقًا وقلمًا ، وفى صـعوبة كـبيرة ، كتب هارفى بضع كلمـات قصيرة بأصـابع مرتجفـة مرتعشـة – لعـدم قدرتـه على الـكلام – جاء فيها :

« كـنـت أتمنـى أن تـكون ابنـتى هى الـتى تقف فى هذه اللحظة بجـوار فـراشـى ، ولكن هكذا كـانت إرادة الله ، لقـد شـاء أن يحرمنى من متعة الشعور بأن هناك دموعًا سوف تسيل حزنًا على فراقى .. لقد بكيت زوجتى عندما ماتت ، وها أنا أموت دون أن أجد أحدًا يبكينى ! .

إننى أترك ممتلكاتى الخـاصـة لأبنـاء إخـوتى ، أمـا ثروتى ومـزرعـتى فـأنا أهديهـمـا لكليـة الطب الملكيـة ، فكل من فيـهـا أبنائى » .

ولفظ آخر أنفاسه يوم ٣ يونيو عام ١٦٥٧ ، عن ٧٩ عامًا .



جين أوستن

(١٨١٧-١٧٧٥)

الأديبة الواقعية



– كتبت يومًا تحدّث القراء عن مهنة الكتابة ، تلك التى أحبتها وأفنت فيها كل عمرها ، قالت موجهة حديثها إلى كل من أمسك بالقلم ليكتب ، ويحاول أن ينقل أفكاره إلى الناس : « إذا أردت أن تكون كاتبًا فلابد أن تكون قارئًا غير عادى ،قارئًا مدمنًا يبحث دومًا عن الطبق الشهىّ فى كل مطبخ فى أى مكان من الدنيا .. ثم تجلس وحدك فى ركن قصى هادىء وتأكل كل ما حوَته هذه الوجبة الدسمة من شتى ألوان الطعام .. ولكن إيَّاك أن تُصاب بعسر هضم .. فلابد أن تكون معدتك قوية سليمة من أى مرض .. فالعقل السليم هو معدة الكاتب الناجح ! .

فإذا أحسست بأن رأسك قد امتلأ ، قُم من كرسيك وامش .. ثم فكّر فيما قرأت واستوعبت وأمسك بقلمك واكتب .. اكتب باختصار حتى يُقبل الناس على قراءة ما تكتب .. وقدّمه لهم بوضوح ، حتى يفهموا ما حوته كلماتك من أفكار ، وإعرضه فى إطار مزخرف جميل ، حتى تبقى الصورة هى الضوء الذى يسيرون على هُداه وسط ظلمات الحياة » ..

إنها الكاتبة والروائية الإنجليزية الشهيرة چين أوستن Jane Austen ، ولدت فى ١٦ ديسمبرعام ١٧٧٥ ، فى قرية ستيفنتون Steventon بمقاطعة هامبشير Hampshire الإنجليزية ، وكانت سادسة سبعة أشقاء ، بينهم أخت واحدة

تكبرها بعامين هى كاساندرا .. ولم تكن أسرتها غنية ، وإنما نشأ الأفراد نشأة فاضلة ولم يجدوا مشقة فى إحتلال مكانتهم الإجتماعية ، فقد أصبح اثنان من إخوتها من أمراء البحر ، بينما انضم الثالث إلى الكنيسة اقتداءً بأبيه الذى كان قسيسًا لبلدة ستيفنتون .

وكانت چين تحب أختها كاساندرا حبًا جمًا ، ويوم عزمت أمها على إرسال الأخت الكبرى كاساندرا إلى المدرسة ، أصرت چين وهى طفلة أن ترافقها ، ولم تفلح محاولات الأم فى منعها ، مما جعلها تقول : « لو شاءت كاساندرا أن تذهب لقطع رأسها ، لأصرت چين على أن تفعل الشيء ذاته ! » .

وذهبت الأختان معًا إلى المدرسة بأكسفورد ، ثم إلى مدرسة أخرى فى مدينة ريدنك ، وهى مدينة تقع فى منتصف الطريق بين أكسفورد ولندن .

وقد أكبت چين أوستن على مطالعة الكتب القديمة والحديثة بشراهة ، تقرأها بنهم وشغف كبير ، وتنهل من معينها .

وكانت أسرتها كلها مولعة بالروايات ، فكانت تتلى على مسامعهم فى الأمسيات ، وكانت چين تحسن الفرنسية وتلم بالإيطالية وتجيد العزف على البيانو ، فضلاً عن الغناء ، وكانت خياطة بارعة تحسن التطريز إلى حد كبير .. أى أنها كانت ربة بيت مثقفة من الطراز الأول .

أما أختها كاساندرا فقد كانت رسامة ماهرة .. والحق أن الأسرة كلها كانت بارعة فى ناحية من النواحى ، حتى إن الأم نفسها كانت تَنظُم الشعر ، وكان أحد إخوتها يحرّر مجلة إحدى كليات جامعة أكسفورد ، وكانت كتابات الأسرة يطغى عليها الطابع الفكِه ، غير أن القدر شاء أن يجعل من چين وحدها الشهيرة بين أفراد الأسرة .. ومن فرط شهرتها تلك غيَّر أخوها « إدوارد » اسم العائلة من « أوستن » إلى « نايت » ؛ لأنه لم يطق طغيان شهرة اسم اخته فى

العائلة !.. وقد تركت لنا چين ست روايات ، على مستوى عال من الجودة ، هى : « كبرياء وهوى » Pride and Prejudice ، و« العقل والشعور » Sense And Sensibility ، و« حديقة مانسفيلد » Mansfield Park ، و« إيما » Emma ، و« إقناع » Persustion ، و« دير نورثانجر » Northonger Abbey .

ومن الملاحظ أنها كانت تبدأ كتاباتها بعنوان ثم تغيّره بعد ذلك بعنوان آخر .

وكانت بداية نشاطها الأدبى فى مسقط رأسها ، بلدة ستيفنتون ، عندما شرعت وهى فى السابعة عشرة من عمرها بالعمل فى المسودة الأولى لرواية « إلينور وماريان » وهو العنوان الأول الذى اختارته ثم غيرته إلى « العقل والشعور » أو « الإحساس والوعى » كما يسمّيها البعض .. وقد كتبتها على شكل رسائل متعاقبة – حسب أسلوب ذلك العصر – وقد جرى تنقيح هذه الرواية فيما بعد ونشرت عام ١٨١١ .

وكانت چين قد تلتها على الأسرة فى الأماسى الطويلة – حسب الأصول – ويبدو أن كل قصة لها كانت تُدخل عليها تعديلات فى صلبها وعنوانها نتيجة اقتراحات المستمعين ، وذلك قبل أن تُكتب وتُطبع ، وكان أفراد الأسرة لا يتحدثون عنها خوفًا من أن تُسرق وتنشر باسم آخر .

ثم شرعت بعد ذلك فى كتابة روايتين أخرتين ، وهى فى العشرينات من عمرها ! إلا أنها لم تنشرها إلا بعد سنوات عدة .

وتجدر الإشارة إلى أن روايتها « كبرياء وهوى » التى كانت أساس شهرتها ، رُفضت أولاً من قبَل أحد الناشرين عام ١٧٩٧ ، وكانت قد عرضتها بعنوان « الانطباعات الأولى » .

وفى عام ١٧٩٨ بدأت كتابة « دير نورثانجر » ، التى انتقدت فيها الرواية « القوطية » ، وقد ابتاعها أحد الناشرين بمبلغ عشرة جنيهات ، ولم تنشر إلا عام ١٨١٨ .

والرواية القوطية Gothic تلك هى نوع من الروايات كان منتشراً فى عصر چين ، رومانسىّ الطابع ، يتسم ببطلته الرفيعة الحسب والنسب ، وبمشاهد الطبيعة المرعبة ..

وفى عام ١٨٠١ انتقلت چين أوستن من ستيفنتون إلى بلده « باث » Bath ، حيث قضت هناك أربع سنوات لم تكن خصبة فى الإنتاج الأدبى ، إذ لم تكتب فيها سوى رواية واحدة ، إلا أنه تهيأ لها ، فى هذه البيئة ، أن تتشرب جو مجتمع الطبقة فوق المتوسطة ، وقد ظهر أثره جليًا فى كتاباتها .

وفى عام ١٨٠٥ انتقلت أسرة أوستن إلى مدينة « سوثمبتون » ، ثم استقرت أخيراً فى بلدة « تشاوتون » Chawton ، عام ١٨٠٩ ، وانصرفت چين إلى الكتابة حتى وفاتها عام ١٨١٧ .. وفى هذه الفترة ، كتبت روايات جديدة ، وأعادت صياغة روايتين لها ، ونشرت « حديقة مانسفيلد » عام ١٨١٤ ، ثم نشرت فى عام ١٨١٦ رواية « إيما » أما روايتها « إقناع » فلم تُنشر إلا بعد وفاتها بعام ، أى فى عام ١٨١٨ .

وقد بقى اسمها مكتوماً فترة طويلة عن الناس ، إذ لم تضع اسمها على أربع من رواياتها الست الشهيرة ، فكانت تتضارب الآراء حول مؤلفها ، فيزيد من انتشارها وذيوع ذكرها فى المجالس .

وقد ذاع اسمها وشاع عندما كان أخوها « هنرى » فى اسكتلندا ، فسمع أطراءً عظيماً على إحدى رواياتها – وهى الكبرياء والهوى – فلم يتمالك نفسه من شدة الفرح وباح باسم المؤلفة الحقيقىّ ، وأعلن أنها أخته .. چين أوستن .

وقد قيل : إنه لم يكن من المستحسن فى أيام چين أوستن ، أن تكتب امرأة قصة باسمها الحقيقى ، لأسباب اجتماعية .. ثم إنه كان من المفضل عندما يظهر كتاب لكاتبة غير معروفة ألا يُذكر اسمها لتتضارب حول هوية مؤلفته الآراء فيروِّج كما ذكرنا ، وإلا أصابه الكساد .

لذلك عندما ظهرت روايتها « العقل والشعور » أشير إليها أنها « بقلم سيدة » فلما ظهرت « كبرياء وهوى » كُتب على الغلاف « بقلم مؤلفة العقل والشعور » ، حتى إذا ما ظهرت رواية « حديقة مانسفيلد » بثلاثة أجزاء كُتب على غلافها أنها بقلم مؤلفة روايتى العقل والشعور وكبرياء وهوى .. وتحظى چين أوستن اليوم بجمهور كبير من القراء ، وذلك أكثر مما يحظى به أى روائى آخر من كتَّاب القرن التاسع عشر ، باستثناء « تشارلز ديكنز » وهى تُظهر فنًا فريداً فى كتابة رواياتها ، فالحبكة فيها بارعة التركيب ، والقصص محكمة البنيان ، فضلاً عن طرافة فى السرد كما تمتاز رواياتها بالوضوح التام والاقتصاد فى التعابير ، فى أسلوب سلس أخاذ .

وللمرأة دورها البارز فى نتاجها ، وقد أعطت بطلات رواياتها صورة كائنات بشرية عادية ، لهن من الأخطاء والنقائص ما لهن من الخصال المحمودة .. لقد كانت چين أوستن فتاة تنتمى إلى البقعة الوسطى ، وتقيم فى إحدى مدن الأقاليم ، ريمكن القول بأنها قضت الجزء الأكبر من حياتها فى حجرة الجلوس ، حيث ترقب ما يدور بها من حياة اجتماعية متزنة هادئة ، وحيث كتبت الجزء الأكبر من رواياتها على قصاصات صغيرة من الورق يمكن إخفاؤها إن دخل الحجرة زائر غريب ! .

لا عجب إذن أن تدور أعمالها حول تلك الجوانب من الحياة الاجتماعية التى عرفتها عن قرب ، والتى أصرت كتاباتها عليها ، هذا بالرغم من أن حروب

نابليون كانت قائمة فى ذلك الوقت ، كما أن الحركة الرومانسية كانت تجتاح الأشكال الأدبية وقتها .

أعرضت چين عن ذلك والتزمت بتصوير الحياة الاجتماعية التى تعرفها وأعرضت عن معالجة ما هو قائم أو شرير أو مبالغ فيه .

وقد بلغت القمة فى المجال الذى ارتضته لنفسها ، وكانت تقول : إنها « ترسم على قطعة عاج صغيرة لا تكاد تتجاوز مساحتها البوصتين ، بريشة دقيقة جداً فتنتج تأثيراً يسيراً بعد جهد كبير » .. ومنذ بداية حياتها الأدبية هاجمت القصص الرومانسية والروايات العاطفية ، والتزمت بالعقل وضبط النفس ، وأبرزت المفارقة بين الواقع والخيال ، وانتقدت بشدة خداع الذات .

وعاطفة الحب فى عالم چين أوستن عاطفة متزنة عاقلة قلما يفلت زمامها .. ومن هناك كان نقد الكاتبة الإنجليزية الشهيرة « شارلوت برونتى » ، التى عابت عليها خلو أعمالها من العاطفة المتأججة النابضة ، والحيوية الدافقة .. فمن المعروف مثلاً أنه بالرغم من أن أعمالها تدور حول الحب والزواج فإنها تخلو من مشهد حب واحد .

فچين أوستن تترك المحبين وشأنهم ، وتجعل القارئ يتخيَّل ما يمكن أن يدور بينهم ، فليس من الكياسة أن نستمع لذلك ! ، فهى تؤمن بالعاطفة ، ولكنها ترى ضرورة ضبطها والسيطرة عليها والتعبير عنها بطريقة ذهنية .

كانت چين أوستن ذات نظرة ثاقبة تنفذ بها إلى أعماق من حولها ، وتروى ما يتسم به سلوكه من تفاهة وغباء ورياء وادعاء .. ومن هنا كان ذلك التصوير الواقعى الضاحك الساخر لشريحة من تفاهة من الحياة الاجتماعية فى عصرها ، كما كنت فنانة واعية مستغرقة فى مشاكل فنها ، ملتزمة بمتطلبات البناء والتكوين ومنطقية الأحداث والشخصيات وصدق الأسلوب وجماله .

وقد قيل عنها : إنها « سليلة الروائيين الإنجليزيين : صمويل ريتشاردسون ، وهنرى فليدنج ، ولكنها دققت فيما ورثته عنهما ، فأنتجت نوعًا من الواقعية الدقيقة المهذّبة ، وتخلصت من خشونة فليدنج وعاطفية ريتشاردسون ، وكانت من دعاة الأخلاق ، ولكن ذلك لا يعنى أنها تكتب لتعلّم ، ولكنها كأى فنان وأديب تكتب لتمتع القارئ أولاً وأخيراً » .

ورؤيتها الأخلاقية واضحة فى جميع جوانب أعمالها من خلال القيم التى تحكم بمقتضاها على شخصياتها ، وهى ضبط النفس ، ومراعاة شعور الغير وأحاسيسه ، ومعرفة الذات ، ومبدأ الصواب الناتج عن التربية الصالحة .. فهى تدين الصلف وحب الذات والغرور والاستعلاء والكبرياء الطبقىّ .. والروايات الست لچين أوستن تدور كل منها حول قصة حب تنتهى عادة بالزواج ، وفى مركز الدائرة فتاة تحب لأول مرة ، وتصور چين أحاسيسها وآمالها ومخاوفها ، وما يعترض هذا الحب من عقبات وأخطاء تتغلب عليها فى النهاية ، وتحقق معرفة الذات والسعادة .

وحول هذه الشخصية تضع جماعة من الأشخاص ، تربطهم بها صلة القرابة أو الجيرة أو النسب ، ويكوّن الجميع عالمًا صغيراً تعرف چين كل دقائقه ، أو هكذا توهم القارىء .

وتعتمد على الأسلوب الدرامىّ الذى يقوم على المشاهد القصيرة والحوار ، وعلى الكوميديا القائمة على المفارقة فى الموقف والأسلوب .

وتعد روايتها « كبرياء وهوى » ، أشهر رواياتها وأحبها إلى قلوب القراء . وتدور حول قصة حب « إليزابيث » و« دارسى » ، ولكنها تقدم لنا أسرة إليزابيث وعالمها بأكمله كذلك .

وإليزابيث هى الابنة الثانية لأسرة لها خمس فتيات فى سن الزواج ، وشُغل والدتهن الشاغل هو تزويجهن ، ولذا فهى شديدة الاهتمام بكل شاب أعزب ثرى ينزل بالبلدة .. وزياراتها وولائمها وحديثها داخل البيت وخارجه تسيطر عليها هذه الرغبة .

وتبرز چين أوستن ببراعة فائقة تفاهة هذه الأم وحماقتها .. أما الأب فيقضى معظم وقته بين كتبه ، ولا يصنع شيئًا للحد من غلواء زوجته وحماقة بناته الثلاث الأخيرات ، وتفاهتهن وافتقادهن إلى السلوك القويم .

أما الابنة الكبرى « چين » - ملكة جمال الأسرة والبلدة - ففتاة رقيقة دمثة الأخلاق ، تفتن شابًا وسيمًا ثريًا يزور البلدة مع صديق له أكثر ثراءً وأعلى مركزًا ، إلا أن حماقات الأسرة تجعل هذا الصديق الذى يحب سرًا الابنة الثانية الجميلة الذكيَّة المرحة إليزابيث ، يحاول إنقاذه من التورط فى الزواج منها .. وتدور القصة حول سوء الفهم الذى يقع بين إليزابيث وهذا الصديق الذى يُدعى دارسى ، نتيجة لما تبين منه من كبرياء وصلَف نحوها ونحو أسرتها ، ولجهلها لحقيقته وحقيقة مشاعره نحوها .. ويزداد سوء الفهم ويتفاقم ثم يزول تدريجيًا ، ليتم الزواج بين الحبيبين بعد أن تنقشع الغشاوة عن أعينهما ، ويدركا خطأهما وحقيقة الموقف .

كما تتزوج چين حبيبها ، ويُجبر على الزواج من الابنة الصغرى ضابط كان قد هرب معها .. وتبقى الأم فى النهاية ومعها ابنتان تنتظر خُطَّابًا لهما .

لقد صورت چين أوستين فى هذه الرواية - وفى رواياتها الأخرى - حياة الطبقة فوق المتوسطة تصويرًا دقيقًا ، مبنيًا على الإتقان وصدق الرؤية .

وبرغم النقد الذى وجهته إليها الروائية « شارلوت برونتى » والأديبة « چين كارلايل» ، إلا أن النقَّاد والكتَّاب الآخرين مدحوا أعمالها ، وأعطوها ما تستحق

من مكانة أدبية .. فقد وصفها « ليفيز » أحد كبار النقاد فى عصرها بأنها : « أحد أعمدة الرواية الإنجليزية ، وأول فنانة مجددة فى تاريخها » .

وتحدث « ماكولا » عام ١٨٤٣ عن قدرتها وقدرة شكسبير على رسم الصور الهزلية الساخرة .. ووضعها الشاعر « ألفريد تينسون » بعد شكسبير مباشرة ..

وأشاد الروائى « روبرت لويس ستيفنون » بموهبتها الأدبية ، وكان معجباً تمام الإعجاب بشخصية « إليزابيث بينت » ، بطلة رواية « كبرياء وهوى » التى يقول عنها « إنها أبرز الشخصيات الروائية فى تاريخ الأدب الإنجليزى » .

وكان الأمير چورچ – الوصىّ على العرش فى انجلترا – من أكبر المعجبين بآثارها الأدبية إلى حد أنه احتفظ بمجموعة كاملة من كتبها فى كل قصر من قصوره .. فلما بلغها ذلك أهدت إليه قصتها المشهورة « إيما » أما هو فقد دعاها لمشاهدة روائع مسكنه المعروف بكارلتون هاوس أما الروائىّ العظيم السير والترسكوت ، الذى كان معاصراً لها ، والذى لم يكن مرموقًا فقط فى إنجلترا ، بل وفى أوربا كلها ، فقد أُعجب بأدبها وأشاد به ، حتى إنه قد قرأ روايتها « كبرياء وهوى » للمرة الثالثة بإعجاب متزايد ، وقال : « إن لها لمسة أنيقة وتمتاز بصدق الوصف والعاطفة » .

ولم تكن چين قاصّة فحسب ، بل كانت إلى جنب ذلك شاعرة ، غير أن تاريخ الأدب لم يحتفظ لنا إلا بالقليل اليسير من شعرها الذى لا يدل على تفوقها فى النظم قدر تفوقها فى النثر .

كما جرب حظها فى الرسم محاكية أختها كاسندرا ، فتركت لنا لوحة رائعة لـ « فانى » ابنة أخيها إدوارد ، إلا أن اهتمامها البالغ بالجانب القصصى حال دون كونها رسّامة مشهورة .

ولم تتزوج چين ، مع أنها كانت فتاة جميلة ، تماماً مثل كاساندرا أختها وقد قالت عنها أمها : إنها « أجمل فراشة تبحث عن زوج » .

وقد كشفت الرسائل التى بعثت بها إلى أختها الكبرى عن أنها قد أحبت شاباً أيرلندياً ، إلا أنه قد انتهى بالإخفاق لأن كلا الحبيبين كان وقتها من دون مورد مالىّ يدعّم زواجاً ويقيم أوْدَ العائلة المرتقبة ، فتركها وتزوج زواجاً موفقاً وبلغ منزلة رفيعة فى أيرلندا .

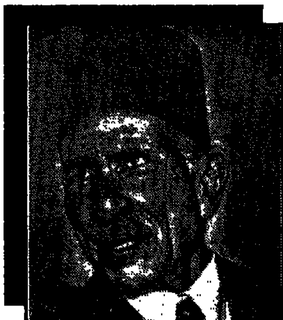
وعندما سُئل فى شيخوخته – وقد توفى فى الثالثة والتسعين – عن حبه لـ « چين أوستن » ، أجاب : « لقد كان حباً صبيانياً » .

ولكنه لم يكن كذلك من جانبها ، فقد كان حباً حقيقياً ، ولعله الوحيد فى حياتها ، فقد وصفته لأختها قائلة بإنه : « مثال الرجل المهذب الكامل ، جميل الطلعة .. وشاب لطيف » .

ولم تتجاوز چين الثانية والأربعين من عمرها عندما انطوت صفحة حياتها للأبد عام ١٨١٧ ، وقد اختلفوا فى المرض الذى ماتت به ، فقيل : إنها ماتت بالسل ، وهو المرض الذى كان شائعاً فى زمانها ، وقضى على كثيرين من النوابغ من أمثال الأخوات آل برونتي ، وهو الإحتمال الأقوى .. وقيل : بل ماتت بمرض لم يكن معروفاً وقتها .

وكان المرض قد اشتد عليها فى أيامها الأخيرة ، فما كان من طبيبها إلا أن أخبرها بمصيرها المحتوم ، فلم ترتعب ولم تفزع وأعدت للأمر عدته . ويقيت بضعة أيام أُخر ، حتى إذا ما جاء اليوم المحتوم ، أصيبت بإغماءة ، ثم خفت عنها بعض الشيء فدعت أختها كاساندرا ، فلما سألتها عما تريد ، أجابتها چين .. « أريد أن أموت » ! .





أحمد لطفى السيد

(١٨٧٢ - ١٩٦٣)

أستاذ الجيل

- صحفيّ ومفكر وفيلسوف ووزير ومدير للجامعة ورئيس للمجمع اللغوى ورائد من رواد الحركة الوطنية فى مصر .

ولد أحمد لطفى السيِّد فى ١٥ يناير عام ١٨٧٢ ، بقرية « برقين » فى مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية .. وكان والده « السيِّد باشا أبو على » عمدة هذه القرية ، كوالده « على أبو سيِّد أحمد » ، وكان صاحب شخصية مهيبة ، وشكيمة قوية ، وعدالة فى معاملة غيره ، وعطفه عليهم .. ولما بلغ الرابعة من عمره ، أدخله والده كتّاب القرية ، حيث مكث فيه ستة أعوام ، تعلم خلالها القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم كله .. ثم التحق وهو فى العاشرة بمدرسة المنصورة الابتدائية وكانت المدرسة الحكومية الوحيدة فى الدقهلية كلها .. وأمضى بها ثلاث سنوات ، ولم تكن شهادة الابتدائية ولا البكالوريا قد وجدتا بعد ، بل كان الانتقال من مرحلة إلى مرحلة إلى أخرى بالنجاح فى امتحان المدرسة .. وقد نجح فى المدرسة الابتدائية عام ١٨٨٥ ، وانتقل إلى القاهرة ليلتحق بالمدرسة الخديوية الثانوية .. وهناك اتصلت أسباب المعرفة والصداقة بينه وبين زميله ، وصديقه بعد ذلك ، عبد العزيز فهمى من أول يوم التقى به فى عنبر المدرسة .

لم يكن من الطلاب المتفوقين ، إلا أنه برز فى العلوم العربية

والرياضيات .. وقد حصل على البكالوريا عام ١٨٨٩ .. وكان يرغب فى دخول مدرسة المهندسخانة ، إلا أنه أعرض عنها ودخل مدرسة الحقوق .. وكانت وقتذاك يمكن أن تسمى « كلية حقوق » و« كلية آداب » معًا .. فقد كان الطلبة يدرسون فيها - إلى جانب العلوم القانونية - علومًا أدبية ، كآداب اللغة العربية ، وقواعد النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والعَروض والقوافى وتفسير القران الكريم والمنطق .. وكانت مدة الدراسة بها خمس سنوات .. ومن أساتذتها حفنى بك ناصف ، والشيخ حسونه النواوى أحد شيوخ الأزهر .

وقد هوى لطفى السيِّد ، وهو طالب بالحقوق ، الكتابة فى الصحف ، خاصة جريدة « المؤيد » .. وفى صيف ١٨٩٣ ، سافر إلى استانبول ، وهو مايزال طالبًا ، وهناك التقى بسعد زغلول وحفنى ناصف والشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » ، وذهب معهم لزيارة جمال الدين الأفغانى فى منزله .. ولما رآه أعجب بشخصه وبعلمه وبألمعيته ، وفى اليوم التالى ذكر لسعد زغلول رغبته فى التلمذة على الأفغانى ، فقال له : اذهب إليه ، واطلب منه ذلك .

وبالفعل ذهب لطفى السيد إليه ، وقال له : أنا لست زائرًا ، ولكنى تلميذ .. فسُرَّ الأفغانى بذلك ، وأخذ عهدًا على لطفى السيد بأن يلازمه طوال إقامته بالآستانة .. وقد فعل .. ويقول لطفى السيد عن تلك الفترة : « **وأهم ماأظن أنى انتفعت به من السيد جمال الدين فى تلك المدة أنه وسَّع فى آفاق التفكير ، وهدانى إلى أن المرء لايستطيع أن يربّى نفسه إلا إذا حاسبها آخر كل يوم على ماقدمت من عمل ، ومالفظت من قول ، وماخطر لها من خاطر** » .

وقد حصل على ليسانس الحقوق عام ١٨٩٤ ، وعُين فى صيف ذلك العام كاتبًا فى النيابة بمرتب خمسة جنيهات فى الشهر ، فى القاهرة ، ثم فى الإسكندرية .. وعين كذلك سكرتيرًا لأحد المحامين العموميين .. ثم انتدب معاونًا

للنيابة ببنى سويف ، وسَعِد بذلك ؛ لأنه وجد بها صديقه القديم عبد العزيز فهمى باشا وكيلاً للنيابة وقتئذ .

وفى عام ١٨٩٦ تم تعيينه وكيلاً للنيابة بمرتب عشرة جنيهات شهريًا .. وفى تلك السنة أنشأ مع عبد العزيز فهمى وآخرين جمعية سرية غرضها تحرير مصر .

وكان الخديوى عباس حلمى على علم بتلك الجمعية السِّرية ، فقد قابل مصطفى كامل لطفى السيد ، وأخبره بذلك ، ومهَّد له مقابلة الخديوى .. وفى هذا اللقاء ، طلب الخديوى عباس من لطفى السيد أن يسافر إلى سويسرا ، لكى يكتسب جنسيتها ، ثم يعود إلى مصر ليحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى .. والسبب فى اختيار سويسرا دون أية دولة ، أن التجنس بجنسيتها قريب المنال لايكلف الراغب فيه إلا إقامة سنة واحدة بها .

وسافر لطفى السيد إلى سويسرا ، وأقام بجنيف ، حيث التحق بجامعتها للدراسة فيها ، وقابل هناك الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين .. غير أنه لم ينجح فى الحصول على الجنسية السويسرية ، فعاد إلى مصر حيث زاول مهنته كوكيل للنيابة فى الفيوم وميت غمر والمنيا .

وفى عام ١٩٠٥ ، استقال من النيابة ، لخلاف فى الرأى القانونى بينه وبين النائب العمومى الإنجليزى « كوربت بك » .. وكان قد ضاق من جو النيابة الخانق ، إذ كان وكلاء النيابة مكلفين بعدم التصرف فى الجنايات الكبرى إلا بعد أخذ رأى النائب العمومى .

وعزم بالعمل معه فى المحاماه ، فأجاب رغبته واشتغل معه لفترة قصيرة ، ثم اعتزل المحاماه لينصرف إلى العمل بالسياسة .

وفى عام ١٩٠٧ أنشأ مجلة « الجريدة » وافتتحها بمقال تضمن أغراضها

ومبادئها ، جاء فيه : « ما الجريدة إلا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ، ومراميها إرشاد الأمة المصرية إلي أسباب الرقىّ الصحيح ، والحض على الأخذ بها ، وإخلاص النصح للحكومة والأمة بتبيين ماهو خير وأولى ، تنقد أعمال الأفراد وأعمال الحكومة بحرّية تامة أساسها حسن النطق ، من غير أن تعرض للموظفين والأفراد فى أشخاصهم وأعمالهم التى لامساس لها بجسم الكل الذى لاينقسم ، وهو الأمة » .

وكان يكتب فى الجريدة صفوة الكتاب والمفكرين ، نشروا على صفحاتها آلاف المقالات فى صورة أبحاث سياسية وفقهية واجتماعية .. حتى احتجبت عن الصدور عام ١٩١٥ .

وعندما تأسس حزب الأمة فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٠٧ ، اختير لطفى السيد سكرتيراً عاماً له .

وفى عام ١٩١٥ ، عين مديراً لدار الكتب حتى عام ١٩١٨ ، وكان يرى أن الترجمة أجدى سبيل للنهضة الثقافية والعلمية ، وأنها لابد وأن تسبق التأليف ، كما حدث فى أوربا .

ولذلك فقد اتجه لترجمة بعض مؤلفات أرسطو ، وهى : « الأخلاق » عام ١٩٢٤ .. و« الكون » عام ١٩٣٢ .. و« الطبيعة » عام ١٩٣٥ .. و« السياسة » عام ١٩٤٧ .

ولما قامت الثورة المصرية عام ١٩١٩ ، ترك إدارة دار الكتب ، وانتظم عضواً فى الوفد المصرى الذى فوضته الأمة للسعى فى سبيل استقلالها ، وأسهم بجهده وطاقاته المالية والثقافية ووعيه المتمكن فى كل مجالات الكفاح الوطنى .

وفى عام ١٩٢٥ ، عُين مديراً للجامعة المصرية التى أسهم فى إنشائها ، وعمل على قبول الفتيات المصريات فى الجامعة حتى تخرجن فى كليتى الآداب والحقوق عام ١٩٣٣ .

ظل على رأس الجامعة المصرية يرعاها ويتعهدها ويصونها ، حتى أرسى لها دعامات من المنعة والتقاليد لتواصل رسالتها العلمية الكبرى ، ولم يرض أن يترك منصبه هذا إلا عندما ألح عليه صديقه محمد محمود باشا ، رئيس الوزراء عام ١٩٢٨ ، أن يشترك معه فى وزارته .

فكان من حظ لطفى السيد أن يتولى وزارة المعارف ، وقد قال عن ذلك :

« وهى الوزارة التى تتفق وميولى الشخصية وما أهدف إليه من خدمة عن طريق العلم والتربية والتعليم ، طريق الحرية والاستقلال ، فإن التعليم هو الأساس الذى يُبنى عليه تحقيق الأطماع القومية ، ولاجدال فى أن العلم ضرورى لتقدمنا بل هو ضرورى لحياتنا الحاضرة ، وأنه هو السلاح الوحيد الصالح للانتصار فى معترك الحياة للفرد ، والعامل الوحيد للاكتشافات والاختراعات وقوام هذه المدنية الحديثة » .

ولكنه لم يستمر طويلاً فى وزارة المعارف ، لأن وزارة محمد محمود باشا لم يزد عمرها عن خمسة عشر شهراً وبضعة أيام .

فاعتكف بين كتبه وأوراقه من أكتوبر ١٩٢٩ ، حتى أوائل ١٩٣٠ ، حين استدعى للعودة مديراًللجامعة .

غير أنه استقال من الجامعة فى مارس عام ١٩٣٢ ، لأن وزارة المعارف نقلت الدكتور طه حسين من عمادته لكلية الآداب إلى إحدى الوظائف بديوان الوزارة دون أخذ رأى الجامعة !.. فغضب لطفى السّيد لهذا الاعتداء على

تقاليد الجامعة ، وقابل رئيس الوزراء وقتها « اسماعيل صدقى باشا » ، وشرح له الموقف ، وأبلغه أن الجامعة لاتستغنى عن طه حسين ، واقترح عليه تلافياً للضرر ، واحتراماً لرأى وزير المعارف « حلمى عيسى باشا » أن يرجع الدكتور طه حسين أستاذا بكلية الآداب لاعميداً لها .. إلا أن هذا الاقتراح رُفض ، فقدم استقالته .

وظل بعيداً عن الجامعة حتى أبريل عام ١٩٣٥ ، حين جاء « نجيب الهلالى باشا » وزيراً للمعارف فى وزارة « محمد نسيم باشا » الثانية ، فطلب من لطفى السيد العودة إلى الجامعة ، فاشترط أن يُعدل قانونها بحيث ينص فيه على أنه لاينقل أستاذاً منها إلا بعد موافقة مجلس الجامعة .. وقد بر نجيب باشا بوعده ، وعدل القانون فعلاً .. وعاد إلى الجامعة .

وفى نفس العام طلب أن يضم إلى الجامعة بعض الكليات ، فضمت كلية الهندسة ، وكلية التجارة ، والزراعة ، والطب البيطرى .

وفى أوائل أكتوبر عام ١٩٣٧ ، استقال من إدارة الجامعة للمرة الثانية ، لأن رجال الشرطة اقتحموا الحرم الجامعى .. وكان قد طلب من وزارة الداخلية تعيين كونستبلات لحفظ النظام ، فلم تجب طلبه ، فقدم استقالته .

ولما تشكلت الوزارة الجديدة ، شغل منصب وزير دولة ، ثم وزيراً للداخلية لعدة أشهر .

ثم زاره الدكتور « محمد حسين هيكل » وكان وزيراً للمعارف ، وطلب إليه الرجوع للجامعة ، فاعتذر ، ولكنه ألح عليه ، فقبل العودة بشرط المحافظة على إستقلال الجامعة ، وابتعاد رجال الحكومة عن الاتصال بالطلبة .

غير أنه علم بعد فترة أن الطلبة متصلون بوزراء الأحرار الدستوريين ، فقدم استقالته للمرة الثالثة والأخيرة ، وودع العمل الجامعى عام ١٩٤١ .

لقد كان أهم مايشغل بال لطفى السيد طوال تواجده بالجامعة ، هو المحافظة على استقلالها ، وابتعاد السياسة والسياسيين عنها .. وفى ذلك يقول : « **وأقول الاستقلال لأن أساس التعليم الجامعى حرية التفكير والنقد ، ولأن التربية الجامعية قوامها حرية العمل والبعد عن التأثيرات الحكومية ، وتأثيرات البيئات العامية ، وعن تأثيرات البيئات السياسية المختلفة** » .

ثم عرض عليه رئيس الحكومة وقتها « حسين سرى باشا » أن يكون عضواً بمجلس الشيوخ ، فقبل .

ثم تولى رئاسة مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٥ ، وظل متربعًا على عرشه حتى آخر أيام حياته .

وفى عام ١٩٤٦ ، اشترك فى وزارة « إسماعيل صدقى باشا » وزيراً للخارجية ، ونائبًا لرئيس الوزراء ، واشترك فى مفاوضات صدقى - بيفن ، التى رفضتها البلاد .

وقد توفى لطفى السيّد عام ١٩٦٣ ، عن واحد وتسعين عامًا ، وبعد أن أدى رسالته المثلى فى الجهاد والتضحية والدعوة للوعى الفكرى والثقافى وإعداد جيل تقدّمى مدرك ، حتى لقب بحق « أستاذ الجيل » .





أمين الريحانى

(١٨٧٦- ١٩٤٠)

فيلسوف الفريكة

- أمين الريحانى من أعلام مفكرى العرب الذين عملوا على تحرير الفكر العربى ، ورفع الغشاوة عن أعين الأمة العربية .

وهو أديب لبنانى من أئمة المفكرين فى عصرى النهضة والحديث ، كتب باللغتين العربية والإنجليزية ، وانتشرت شهرته فى العالم العربى كله .. وهو ناقد جرىء وأحد دعاة تحرير الفكر من الضغوط الواقعة عليه ، فقد عاد إلى التجديد والانعتاق من التقاليد والأوهام ومن التعصُّب الدينى ، وفوق ذلك كان مؤرخًا صادقًا ، وكاتبًا اجتماعيًا دقيق الوصف والتحليل ، وخطيبًا ساحرًا ، وداعيًا للوحدة العربية ، كما اهتم بصورة خاصة بأدب الرحلات .

ولد فى قرية « الفريكة » بلبنان ، فى ٢٤ نوفمبر عام ١٨٧٦ ، ودخل مدرسة صغيرة تعلم فيها مبادئ العربية والفرنسية ، وفى الثانية عشرة من عمره ، هاجر مع عمه إلى نيويورك ، والتحق بإحدى مدارس الراهبات ، ليتعلَّم اللغة الإنجليزية ، غير أنه كان يضطر فى بعض الأحيان إلى التغيب عن الدراسة ليقوم بوظيفة الكاتب عند عمه .. وقد اتجه مع الدراسة إلى الاشتغال بالتجارة خمس سنوات ، كان خلالها من كبار الأغنياء ، ولكن نزعة الريحانى إلى الدرس هى التى صرفته عن عالم المادة إلى عالم الفكر وإشراقه .

وبما أن نشأته الدراسية كانت فى البلاد الأمريكية ، فقد كان من الطبيعىّ أن تكون الإنجليزية هى اللغة التى يتقنها قبل غيرها من اللغات ، وقد تمكن

منها وهو فى شرخ صباه ، واجتذبته تآليف كبار شعراء الإنجليز ، فشغف بشكسبير ومسرحياته التى ولدت فيه ميلاً إلى فن التمثيل ، فدخل ممثلاً فى شركة أميركية ، قضى فيها ثلاثة أشهر ، ثم ترك هذا الفن الجميل إلى فن أجمل ، إلى الأدب الذى وهبه كل حياته .

وبعد أن أتم دراسته الثانوية فى المهجر ، دخل إحدى كليات نيويورك ، وقد مكث بها عاماً كان خلالها مثال الذكاء والاجتهاد ، ثم ترك الكلية لعوامل صحية ، فقد كان انكبابه على دروسه من العوامل التى أضعفت صحته ، فأشار عليه الطبيب بترك الكلية والرجوع إلى الوطن ؛ لأن مناخ نيويورك لم يعد يلائم صحته .

وفى عام ١٩٠١ عاد إلى الوطن ، وما إن استعاد صحته حتى رجع إلى نيويورك ، وبقى ثلاث سنوات يكتب ويخطب بالإنجليزية ، وقد نشر عدة مقالات فى أمّهات الجرائد ، وخطب عدة مرات فى أندية ومحافل أمريكية ، وكان يود أن يعبر عن آرائه بالعربية ، ولكن أنى له ذلك وهو لم يتقنها وظل بعيداً عن أدبها وأدبائها ومفكريها ؟ .

وساءه أن يحذق لغة قوم غير قومه ، فقرر أن يدرس العربية وهو فى فجر شبابه ، وقد اختار الكتب اللازمة له ، مثل مقدمة ابن خلدون ، ونهج البلاغة ، ومقامات الحريرى ، وكتب التراث العربى الأخرى ، ودرس حياة أبطال العرب ، وشعرائهم ، وأعجب كثيراً بأبى العلاء المعرّى ، حتى إنه ترجم لزومياته إلى الإنجليزية على شكل رباعيات ، بلغ عدد أبياتها ١٢٨ بيتاً ، وقد أحدثت هذه الترجمة دوياً كبيراً فى الأدب الغربىّ ، فقد أطلعت المستشرقين والباحثين فى الأدب العربى على جوانب ممتعة من التفكير الإنسانى لفيلسوف المعرّة .

وكان قد عاد إلى وطنه لبنان ، ومع اطلاعاته فى كتب الأدب العربى ودواوين الشعراء ، دخل إحدى مدارس لبنان ليتعلّم العربية على يد بطرس البستانى ، وليلقى بعض الدروس بالإنجليزية فى هذه المدرسة .

ثم تاقت نفسه إلى السفر مرة أخرى ، فعاد إلى أمريكا ، حيث استأنف نشاطه الأدبى ، فجذب إليه الأنظار من كل مكان .

وقد عمل فى الدائرة الشرقية فى دار الكتب العمومية هناك ، فاجتمع فيها بعدد من المستشرقين الذين صوروا له الحياة رحلة فى الأرض دائمة التعرف والاستطلاع والتفكير والتأمل .

من أجل ذلك ، لم يحب الريحانى نيويورك ، فكان فيها كالغريب بين شعب لا يعرف معنى السكينة ولا الراحة ولا الجمال ، فقد وجد نفسه بين قوم يأكلون ماشين ويقرؤون آكلين ، ويعدون النقود راكضين ، ويعبدون المادة عبادة تامة ، بل يقدمون أرواحهم وأجسادهم ضحية لها ! .

وقد قال يصوِّر ضجره وتبرمه بهذه الحياة ، قال : « لقد خرجت من هؤلاء المشركين طالباً فى البرية رب إبراهيم ، خرجت من بينهم وأنا على اعتقاد أن المرء إذا قَرُب من العالم الجديد يبعد عن الطبيعة وعن الشعر وعن الجمال الروحى وعن الله ، ولذلك حولت وجهى إلى مشرق النفس ، وعدت فى طريقى إلى أرض الأنبياء ، عدت إلى وطنى لأقترب من جمال الشرق الشعرى وجماله الطبيعى وجماله الروحى بل الإلهى » .

نعم كانت نيويورك تجتذبه بأضوائها ، ولكن لا يكاد يمكث فيها فترة حتى يضيق بها ويعود إلى وطنه الجميل ، إلى وادى الفريكة .. وهناك وجد ذلك الجمال الذى نشدته نفسه ، فارتمى فى أحضان الطبيعة يستجلى أسرارها ويسكر من عبق زهورها وجمال أشجارها ، وأخذ يكتب آراءه وأدبه وفلسفته . ولكن هذا الوطن الذى أغدقت عليه الطبيعة أجمل حللها يشكو الكثير من العلل والأوجاع ، وطن يعيش فى جحيم الضلالات ، ويرسف فى القيود ، وينوء تحت كابوس ثقيل من الجهل والعبودية ، ليس لبنان فقط بل جميع الدول العربية ، وقد آلمه أكثر أن يحرم العربى من نعيم الحرية ، وهو الذى حطم الأصنام وكسر

الأغلال فى سبيل الحرية .. أقلقه أن لا يتمتع الشعب العربى بحريته ، لذلك أخذ يرسل صيحاته من الأعماق .. هذه الصيحات هى مواد كتابه « الريحانيات » ، وهو مقالات وخطب وشعر منثور فى أغراض شتى أكثرها اجتماعية ، تهدف إلى دك صروح الظلم وتقديس مبادىء الحرية ، وإشاعة الروح الديمقراطية بين الناس ، وفتح الطريق للأمة أن تنهض وتسير مع الأمم الكبرى ، جنباً إلى جنب .. وقد جعل شعاره فى صيحاته هذه الكلمة الخالدة : « قل كلمتك .. وامش » .. فهو يقول ما يعتقده دون أن ينتظر رضا هذا أو غضب ذاك ، وهذه سمة المفكرين الأحرار الذين لا يتقيدون بقيد ، ويضربون التقاليد والاعتبارات بكثير من الجرأة .

وعندما كان فى أمريكا ، نشبت الحرب العالمية الأولى ، فأخذ يرقب تطورات الأحداث باهتمام بالغ ، وكم كان سروره عظيماً حين أُذيعت الأنباء عن تمرد الملك حسين على الأتراك ، فقد اعتبر تمرده بدء الثورة العربية الكبرى ، فهلل لهذا الحادث الكبير وكبّر ، وكان يكتب كل يوم مقالاً عن اليقظة العربية وعن وحدة العرب ، وقد شعر من الأعماق أن عليه واجباً نحو قومه يجب أن يؤدّيه .

ومرت سنوات الحرب الكبرى ، وهو فى نيويورك ، كتب خلالها أصدق النزعات القومية وأجمل التأمُّلات الذاتية ، وكان لا يترك مناسبة يخدم فيها قومه إلا اندفع وراءها بإخلاص .

وكان الريحاني – منذ صغره – مولعاً بالأسفار ، تنتزع نفسه إلى التجوال فى بلاد الله الواسعة ، فقد ملّ الإقامة فى نيويورك ، وكان قد قرأ كثيراً عن أسبانيا ، الأندلس المفقود ، وعن قرطبة وقصر الحمراء ، وآثار العرب وأمجادهم هناك ، فأحس أن زيارة الأندلس قد أصبحت عنده من الفروض المقدسة ، وقبل أن تنتهى الحرب بسنة شد الرّحال إلى أسبانيا لزيارتها ..

فماذا رأى ؟ لقد بهرته وأبكته ! .. عاد منها وفى نفسه بهجة كمن شاهد أجمل آثار الدنيا ، ودموع من فقد تلك الآثار .. فبكى ذلك المجد الضائع بدم القلب ..

وكانت زيارته هذه للأندلس من البواعث التى جعلته يؤمن بعبقرية العرب ، وصار حبه لقومه من العقائد المقدسة .. وقد قال عن ذلك : « وقفت فى قصر الحمراء ، فسمعت أصواتًا تنادينى باسم القومية ، ومن أجل الوطن ، وتدعونى إلى مهبط الوحى والنبوة » .. أى إلى الشرق وبلاده .

وبعد انتهاء الحرب ، كان يحلم بأن يرى أوطانه العربية ممتعة بسيادتها وحريتها ، ولكن تلك الأحلام سرعان ما انهارت ، عندما انكشف أمامه خداع الغرب وأوهامه ، والوعود الباطلة للدول الكبرى ، ولم يحصل أى بلد عربى على الاستقلال ، فآلمته هذه النهاية ، وضاقت روحه فى نيويورك ، واعتزم السفر إلى الشرق .

وكانت مصر أولى العواصم العربية التى استقبلته ورحبت به ، وأقامت له الحفلات التى اشترك فيها أكابر مفكرى العرب ، وقد أجمعوا كلهم على الاعتراف بفضله وبما أداه للأمة العربية من خدمات ، وألقى هو عدة خطب ، وقال جملته الشهيرة : « أنا الشرق عندى فلسفات ، وعندى أديان فمن يبيعنى بها طيارات ؟! » .. وقد أيقن بعد أن رأى الحلفاء ينكثون بوعودهم ويخونون مبادئهم ويعبثون بأقدس الرسالات – أيقن أن الصراع فى الحياة طبيعى ، وأن الفوز للقوى ، وأن الأمم التى لا تكون قوية فى خصائصها المعنوية ومقوماتها المادية ، تكون عرضة للموت والفناء .

ومن مصر شد الرحال إلى جزيرة العرب لزيارتها ودراسة أحوالها والاتصال بأمرائها وملوكها وقبائلها ، وخرج من هذه الرحلة التى لاقى فيها الأهوال بكتاب يعد بحق من أئمة ما كتب عن الجزيرة العربية ، تضمن الوصف الدقيق والتأمل العميق والدراسة الشاملة .

ولم تكن السياحة فى الجزيرة العربية من الأمور السهلة ، ولا سيما فى تلك الظروف ولرجل عاش فى نعيم الترف الأمريكى ، ولكنها عزيمتـه الجبارة ، فقد آلمه أن يقـوم الغربيـون برحـلات واسعـة ، وأن يكتبـوا عن البلاد العربية الكثير ، وأن لا يقوم أديب عربى بالاضطلاع بهذه المهمة ، وهم أولى بها .

ولم تكن غـاية الريحـانى من رحلتـه هذه الدرس بقـدر رغبتـه فى إزالة الضغائن والأحقاد بين ملوك العرب ، ثم توحيد هـذه الإمارات فى مملكة عربية واحـدة .. فـقد كـان يحلم بالوحـدة العـربيـة وهـو فى نيـويورك ، وكـان يتـألم أن يرى العرب متفرقين ، وأن يكون أمرهم فى الجزيرة بيد الأجنبى يلعب بهم من وراء ستار .

وقد زار فى رحلته هذه الحجاز واليمن وعسير وغيرها ، كما زار بلاد نجد والكويت والبحرين والعراق زيارة دامت قرابة سنتين ، دوّن فيها أدق مـلاحظاته ودرس جميع المشاكل التى تواجه الجزيرة العربية ، ولا سيما الروح القَبَلية التى تطغى على الروح القـوميـة ، ولم يقـصـر دراسـتـه على الملوك والأمـراء ، وشكل الحكم ، بل تناول طبيعة الجزيرة وعادات البدو وحياتهم الاجتماعية .

وبعد عودته من جزيرة العرب ، أوى إلى قريته الجميلة « الفريكة » ، وذلك الوادى الجـميل ، يسـتجم ويرتاح من وعثاء السـفر ، ولكنه لا يعرف الراحـة ، فـحـيـاته جـهـاد غـيـر منقطع ، وكان لا يمر به يوم دون أن يكتب عـشـرات الصفحات ، فمن محاضرة فى منتدى ، إلى خطاب مدرسى ، إلى مقال ثورى ، إلى بحث هادئ فى مجلة ، إلى موضوع يشتمله كتاب .

هذا ولم يتـرك الريحـانى ، خـلال تلك الفترات ، رسـالتـه كمـجـدد ، فكان يرسل الصـيحـة إثر الصـيحة ، داعيًا إلى الإصـلاح ، والثورة على المعتقدات البالية ، وتحرير الفكر من غشاوة الأضاليل .

وقد قضى فى لبنان فترة طويلة من عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٣٧ ، ثم عاد إلى أمـريكا ، وهناك أخذ يتابع رسالته السياسية فى سبيل القضية العربية ، واجتذبته بصورة خاصة قضية فلسطين .

وقد يكون الريحانى أول عربى رفع صـوته فى أمـريكا ، دفاعاً عن عـروبة فلسطين ، وقد انهالت عليه الصحف الأمريكية ، ومحطات الإذاعة التى يسيطر عليـها الصـهاينة بالسـباب والشـتم ! ، وأرادوا أن يفندوا حـجـجـه بأباطيلهم ومغالطاتهم .

ولكنه لم ييأس فخطب كثيراً وأذاع عدة إذاعات، وناقشهم برصانة وحكمة، كما كتب الكثير من المقالات فى الصحف غير الخاضعة لسيطرة الصهاينة .

وبعد أن أقام عامين فى أمريكا يشرف على طبع كتبه بالإنجليزية ، زار فى أوائل عام ١٩٣٩ المغرب الأقصى ، فاحتـفلت به السلطات الرسمية والهيئات الشـعبية ، وتحدث هو إلى الوزراء والزعماء والأساتذة وجميع طبقات الشعب ، ووضع كتاباً عن بلاد المغرب .

ومن هناك عاد إلى لبنان مرة أخرى ، وطنه الجميل ، ولكنه لم يجلس فى وادى الفـريكة يتـأمل ويتفلسف هذه المرة ، فـقـد أخذ يتجـول فى ربوع لبنان ، جـزءاً جـزءاً ، ويقـوم برحـلات إلى كل مكان رآه أو لم يزره من قـبل ، وكـأنه يكتـشف وطنه من جـديد ! ، وقـد أراد أن يدرس الأخـلاق والعـادات والطبـائع والخصائص اللبنانية ، وقد وصفها أصدق وصف فى أحد كتبه .

كان أمين الريحانى يتمتع حتى آخر حياته بصحة جيدة ونشاط محمود ، وكان لا يشكو مرضاً ، ولكنه القدر ، فقد انطفـأت تلك الجذوة المشعة التى لم تعرف الخمول ، فروعت البلاد العربية فى ١٣ سبتمبـر عام ١٩٤٠ بفقد هذا الكاتب المفكر والأديب الحـر ، الذى ترك ثروة أدبيـة هـى سـجل واضح لتطورنا الفكرى فى هـذه الفترة التى مرت من أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين .

وللريحـانى جـوانب كـثيـرة جـديرة بالدرس ، حيـاتـه الفكرية ، اتجـاهاته الروحية ، آراؤه الثورية ، نزعاته النقدية ، مقامه كأديب مصلح ، جهاده القومى

فى السياسة العربية ، وقد ترك ما يقرب من خمسين مؤلفًا ، بالعربية والإنجليزية ، وترجمت كتاباته إلى ما يزيد عن خمس عشرة لغة ! .

ومن هذه المؤلفات : « موجز تاريخ الثورة الفرنسية » و« المكارى والكاهن » (قصة) ، و« الريحانيات » (فى ٤ أجزاء) ، و« التطرف والإصلاح » ، و« أنتم الشعراء » ، و« زنبقة الغور » (رواية) ، و« خارج الحريم » ، و« ملوك العرب » (جزءان) ، و« تاريخ نجد الحديث وملحقاته » ، « النكبات .. خلاصة تاريخ سوريا » ، و« فيصل الأول » ، و« وفاء الزمن » ، و« سجل التوبة » (مجموعة أقاصيص) ، و« قلب العراق » ، و« قلب لبنان » و« المغرب الأقصى » ، و« المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية » .

ومن هذه العناوين نلاحظ أن أمين الريحانى كان مؤرخًا وقاصًا وروائيًا وكاتب تراجم ومصلحًا ورحالة .. وبجانب ذلك كله كان شاعرًا أيضًا ، فقد أصدر ديوانًا اسمه : « هتاف الأودية » ، خلا فى بعضه من القافية ، إلا أن منزلته كأديب ورحالة تفوق منزلته فى مضمار الشعر .

وقد تزوج عام ١٩١٦ من آنسة اسكتلندية تدعى « برتاكيس » ، وعُقد القران فى نيويورك .. وبعد وفاته ، شغل الريحانى أقلام الأدباء ، من دارسين ونقاد، فصدرت عنه كتب ومقالات حاول أصحابها إعطاءه المنزلة الأدبية السامية بين مفكرى النهضة الكبار ، كما أصدرت عدة مجلات أعدادًا خاصة عنه .

وقد كان الرِّيحانى أديبًا رائعًا ، جمع إلى ثروة العلم دماثة الخلق ، وحلاوة الطبع ، ونزاهة العقل .. ومن أقواله عن نفسه : « لا المجد ولا الشهرة أمنيتى القصوى ، ولا الثروة ولا السيادة ولا العظمة .. إنما أمنيتى الجوهرية الأولى هى أن أكون بسيطًا فى أعمالى ، صادقًا فى أقوالى ، مستقيمًا فى مبادئى وآرائى ، فطريًا فى تصرفى وسلوكى ، حرًا فيما أحب وأكره » .

★★★



كلاوديوس بطليموس

(١٠- ٧٨م)

عالم الفلك والجغرافيا

- عندما بدأت حركة الترجمة فى العصر العباسى ، والتى تعتبر أساس النهضة العلمية العربية والإسلامية ، كانت أهم الكتب التى اعتمد عليها العرب فى الطب هى كتب أبقراط وجالينوس وديسقوريدس اليونانيين ، وفى الرياضيات كتب إقليدس وأرشمسدس وأبولونيوس وديوفانتس اليونانيين كذلك ، وفى الفلسفة كتب المعلم الأول أرسطو .

أما الفلك والجغرافيا فقد اعتمد العرب فيهما على كتابى « المجسطى » و« الجغرافيا » وكلاهما لبطليموس السكندرى .

وكلاوديوس بطليموس Claudius Ptolemy أو بطليموس السكندرىّ ، هو عالم فلك ورياضة وجغرافيا وفيزياء ، وكان مؤرخًا أيضًا ، كان لكتابيه المجسطى والجغرافيا ، السيادة على علمى الفلك ، والجغرافيا لمدة ١٤ قرنًا من الزمان ، اطّلع على ما كتب سابقوه ، ولخصه وأضاف إليه ، واعتبر فى العصر الرُّومانى الحُجة فى كل ما عُرف من علمى الفلك والجغرافيا .

ولا نعرف سوى القليل عن حياته ، إلا أنه ولد فى بلوزيوم (الفرما) بمصر ، فهو إذن مصرى المولد ، والحياة أيضًا ، فقد قضى شطرًا كبيرًا من عمره بالإسكندرية تلك المدينة الجميلة التى كانت شهيرة بمدارسها وعلمائها فى ذلك الوقت .

وقد اختلف فى تحديد عام مولده ، ويرجح البعض أنه عام (١٠) بعد الميلاد ، أما وفاته فكانت عام (٧٨) ميلادية .. أما كتاباته وآثاره وآراؤه فلا اختلاف عليها ولا تشكيك فيها .

وما كاد يبلغ سن الرشد ، حتى اطلع على أعمال « هيباركوس » وأبحاثه ، وكان هذا عالمًا رياضيًا وفلكيًا يونانيًا ، عاش قبل بطليموس بحوالى مائتى عام ، وكان من كبار علماء الفلك فى التاريخ القديم .

وبدراسة أعماله ، أحس بطليموس برغبة جارفة فى التخصص وتكريس نفسه للعلوم ، فانصرف إليها بكل ما فى عقله من قوة .

وكان بطليموس رجلاً دقيقًا فى تفكيره وأعماله ، وضع نصب عينيه أن يطور نظريات هيباركوس ، وأن ينظم المعلومات الفلكية التى كانت معروفة فى زمانه بطريقة كاملة وموضوعية .

ومن أجل ذلك أمضى سنوات كثيرة فى عمل شاق ، ووضع مؤلفًا ضخمًا من ثلاثة عشر مجلداً أسماه « القواعد » أو «التركيب الرياضىّ » ، وهو من دون شك ، أعلى ما وصل إليه علم الفلك فى الزمن القديم .. وهو عينه الذى ترجمه العرب ، وأعجبوا به أشد الإعجاب ، تحت عنوان « المجسطى » Almagest .

والمجلدات الثلاثة عشر للمجسطى كالآتى :

الأول والثانى : عرض عام للكون ومركزه الأرض ! .. الثالث : طول السنة وحركة الشمس .. الرابع : أطوال الشهور وحركة القمر .. الخامس : أبعاد وأحجام الشمس والقمر .. السادس : الكسوف والخسوف .. السابع والثامن : جداول النجوم (أقام جداول معروفة) وتضم الاعتدالين .. التاسع إلى الثالث عشر : حركة خمس كواكب فى حركاتها الدائرية ، وهى من أهم إنجازاته .

وقد ترجم الكتاب إلى الفارسية والعبرية واللاتينية ، وأقدم ترجمة له هى اللاتينية التى أمر بها « ألفونس » ملك قشتالة الأسبانية ، وهى ترجمة مقرونة بالأصل العربى .. وفى عصر « أبى جعفر المنصور » تُرجم المجسطى إلى العربية ، ولكن مما يؤسف له أن الترجمة العربية ليست موجودة فى أية مكتبة من مكتبات الغرب أو الشرق .

وفى هذا الكتاب وضع بطليموس نظريته - الخاطئة - وهى المعروفة باسم « النظرية البطليموسية » فى النظام الشمسى .. حيث قرر أن الأرض هى مركز الكون ، وأن الشمس والكواكب الأخرى والأجرام السماوية تدور كلها حول الأرض ! .. والمسارات التى تدور فيها هى مسارات دائرية تماماً ، تقع الأرض فى مركزها .

وقد انتشرت نظريته هذه ولاقت قبولاً عند الكثيرين ، وتسببت فى تأخر علم الفلك لعدة قرون ، حتى جاء الفلكى العظيم « نيكولاس كوبرنيكوس » (١٤٧٣ - ١٥٤٣) ، فأعاد للشمس حقها ، وأعطى للأرض مكانتها الحقيقية ! .

أما فى مجال الجغرافيا ، فيعد كتابه « الجغرافيا » أو « مدخل إلى الجغرافيا » الأساس الذى اعتمد عليه الجغرافيون وكبار الرحالة البحريين حتى القرن السادس عشر .

وهو يقع فى ثمانية مجلدات ، وضم قائمة بخطوط الطول والعرض ، وأطلس بأماكن ومناطق العالم المعروف فى عصره ، كما وضع فيه خريطة ، أو عدة خرائط للعالم .

وكما أخطأ بطليموس فلكيًا فى كتابه « المجسطى » ، أخطأ أيضًا جغرافيًا فى كتابه «الجغرافيا» .

فـقـد أوضـح العلمـاء أنه وقع فى أخطاء شنيـعـة فـى تحـديد الأطوال والأعراض ، مثال ذلك أنه بالغ مبالغة كبيرة فى تحديد طول البحر المتوسط ، وبالغ أيضاً فى تحديد امتداد الجزء المعمور المعروف له من الأرض ، وجعل المحيط الهندى والمحيط الهادى بحيرة ، وذلك بوصله المناطق الآسيوية الجنوبية بجنوبى أفريقيا ، وبالغ فى تحديد حجم جزيرة سيلان ، وأخطأ فى تحديد وضع بحر قزوين والخليج العربى خطأً فاحشاً ، إضافة إلى غير ذلك من الأغلاط .

ومن هنا كـان دور العلمـاء المسلمين فى تصـحـيح هذه الأغـلاط ، ورسم الخرائط السليمة للعالم ، وتحديد المناطق تحديداً جغرافياً سليماً .. وكان على رأسهم العالم الجغرافى العظيم « الشريف الإدريسى » (١١٠٠ - ١١٦٦م) .

ولم تقتصر جهود بطليموس على الفلك والجغرافيا ، فله أيضاً جهود مشكورة فى الرياضيات ، وعلى الأخص حساب المثلثات ، وكما أن له مصنفات فى الموسيقى والفلسفة والتاريخ العام .. وله كتاب فى البصريات يتحدث فيه عن انعكاس الضـوء على المرايا ، وانكسـاره عند السطح الفـاصل بين وسطين شفافين .

وبعد بطليمـوس ، تدهور علم الفلك تدهوراً عظيماً ، واختلط بالتنجيم ، حتى إنه قد وضع قبل وفاته كتاباً عن « التنجيم البابلى » .

وبرغم المغـالطات التى أوردها فى كتبه ، إلا أن ذلك كـان فى حـدود مـا وصل إليه العلم وقتها ، ولا ينفى اجتهاداته العظيمة ، فقد كان أحد أشهر الفلكيين والجغرافيين القدامى .

★★★



إبراهام لنكولن

(١٨٠٩- ١٨٦٥)

محرر العبيد

- إبراهام لنكولن Abraham Lincoln هوالرئيس رقم (١٦) للولايات المتحدة الأمريكية ، والذى تولّى منصب الرئاسة من مارس عام ١٨٦١ وحتى إغتياله فى ١٥ أبريل عام ١٨٦٥ .. وقد تولى الحكم بعد الرئيس « جيمس بوكانان » .. أما « أندرو جونسون » فقد أصبح الرئيس السابع عشر بعد لنكولن .

إن إغتيال إبراهام لنكولن قد روّع الأمريكيين فى كل مكان من الولايات الشمالية والولايات الجنوبية على السواء .. فالشماليون وجدوا الرجل الذى قادهم إلى النصر .. والجنوبيون فقدوا الشخص الذى كان بمقدوره أن يعيد بناء بلادهم المحطمة ، من دون أن يفرض عليهم مزيداً من الأعباء .

والمعروف أنه اغتيل على يد ممثل مخبول مغمور يُدعى « جون ويلكز بوث » Booth ، فقد اندفع إلى مقصورة لنكولن ، التى كان يجلس فيها فى أحد المسارح ، وأطلق عليه النار من مسدسه ، وتمكن من الإفلات .

وقد ولد إبراهام لنكولن فى ولاية « كنتاكى » Kentuchy، فى ١٢ فبراير عام ١٨٠٩ ، وكان الابن الثانى من ثلاثة أولاد لأبيه « توماس لنكولن » وأمه « نانسى هانكس » .. وكان أبوه هذا فقيراً ، وتعيش الأسرة فى كوخ صغير عند طرف الغابة .

وقد توفيت أمه عندما كان بعد فى التاسعة من عمره ، فتزوج والده مرة

ثانية من « سارة جونسون » وكانت امرأة طيبة شجعت إبراهام فى كفاحه لتعليم نفسه .

وفى الحادية والعشرين من عمره انتقل للإقامة فى مدينة « نيوسالم » New Salem بولاية إلينوى illinois .. وهناك اشتغل فى عدد من الأعمال المتواضعة ، كما عمل وكيل بريد فى القرية .. ومع أنه كانت تعوزه الرشاقة فى الحركة والتعبير ، وهو ماكان مكملاً لطول قامته ودمامة مظهره النسبية ، فإنه سرعان ما أصبح ذا شهرة كبيرة كراوى قصص .

والشعبية التى اكتسبها كانت عوناً له عندما عزم على الإنخراط فى حقل السياسة ، وفى عام ١٨٣٤ ، انتخب عضواً فى مجلس إلينوى التشريعى - البرلمان المحلّى - عن حزب المحافظين . وفى عام ١٨٣٧ انتقل إلى مدينة « سبرنجفيلد » Springfield عاصمة الولاية ، لكى يستطيع تتبع الأحداث عن قرب .

وهناك تعمق فى دراسة القانون ، مما ساعده فى حياته السياسية .. وفى عام ١٨٤٢ ، تزوج لنكولن من السيدة « مارى تود » Mary Todd ، وقد أنجبت له أربعة أولاد ، كلهم ذكور ، لم يبق منهم سوى واحد على قيد الحياة .

ثم انتخب عضواً فى الكونجرس - البرلمان الاتحادى - عام ١٨٤٦ ، ولكن ماأظهره من اعتدال فى السياسة جعل الحزب يرفض ترشيحه به فيما بعد .

وكان الخلاف يتزايد بين ولايات الشمال وولايات الجنوب بسبب العبيد الزنوج ، ولم يستطع الحزب السياسى الذى ينتمى إليه لنكولن ، أن يصمد لضغط المتطرفين من كلا الجانبين ، ففريق يطالب بالتحرير التام للعبيد ، وفريق آخر بالإبقاء على العبودية .

وبعدما راح الحزب يفقد مؤيديه نشأ - نتيجة لذلك - حزب سياسىّ جديد هو الحزب الجمهورىّ ، وكان هدفه إلغاء الرق ، فانضم لنكولن إليه ، وذلك عام ١٨٥٨ .

وفى نفس العام اختير ليكون مرشّح الحزب الجمهورىّ لعضوية مجلس الشيوخ عن ولاية إلينوى ، ومع أن لنكولن خسر فى الانتخابات ، إلا أن الخُطب التى ألقاها والمساجلات التى تمت بينه وبين منافسه « ستيفن دوجلاس » أعطته شهرة فى أنحاء البلاد كلها .

وفى عام ١٨٦٠ اختير لنكولن مرشح الحزب الجمهورى لرئاسة الولايات الأمريكية ، واستطاع أن يفوز بسهولة بسبب الانقسام داخل الحزب الديمقراطى بين شماليين وجنوبيين ، ولكن قبل أن يستطع الوصول إلى كرسى الرئاسة ، قررت معظم الولايات الجنوبية الخروج من الاتحاد وإعلان استقلالها باسم الولايات الكونفدرالية .

وفى عام ١٨٦١ قام الانفصاليون بإطلاق نيران المدافع على حصن « فورت سومتر » ، وبذلك بدأت الحرب الأهلية بين الولايات .

وبالرغم من أن الولايات الشمالية كانت أوفر غنًى وسكّانًا من الجنوب ، فإن الحرب تطورت تطوراً سيئًا بالنسبة إليهم فى البداية ، بسبب القيادة البارعة التى أظهر القائد الجنوبى الجنرال « روبرت لى » Lee .

ولم يستطع لنكولن أن يوفق إلى القائد الذى يكون نداً للعدو إلا فى عام ١٨٦٣ ، وهو الجنرال « جرانت » Grant .. فمع هذا القائد الجديد تغيرت مسيرة الحرب ، فأحرز الشمال انتصارات كبيرة فى « فيكسبورج » و « جيتسبورج » .

وفى يناير ١٨٦٣، أعلن لنكولن قراره الرسمىّ والتاريخىّ المشهور بتحرير العبيد ، وإلغاء الرق فى الولايات الأمريكية .

وبحلول عام ١٨٦٥ ، بلغ الجنوب حد التعب والانهيار ، واضطرت ريتشموند Richmond ، عاصمته ، إلى الاستسلام .. إلا أن لنكولن لم يعش

طويلاً لكي يشهد انتصاره ، ففى الرابع عشر من أبريل ، أى بعد خمسة أيام فقط من استسلام الجنرال « لى » ، وبينما كان لنكولن فى مسرح فورد بواشنطن ، يشاهد أحد العروض المسرحية ، إذ تسلل « جون ويلكز بوث » إلى مقصورته حيث يجلس ، وأطلق عليه النار من مسدسه من الخلف ، فأصابه ، وأسرع هارباً .. وكان بوث قد خطط طويلاً مع آخرين لتنفيذ جريمته تلك .

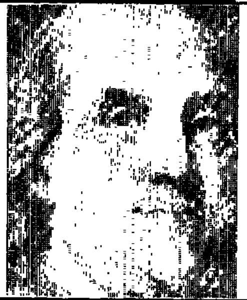
وقضى لنكولن ليلته يعانى من إصابته ، وفى السابعة واثنتين وعشرين دقيقة من صباح اليوم التالى ، لفظ لنكولن آخر أنفاسه .

وحُمل جثمانه فوق قطار خاص إلى « سبرنجفيلد » بولاية إلينوى ، ليدفن هناك ، وقد اصطف الجمهور على طوال الطريق ليشاهدوا جثمانه ، ويودعوا الرجل الذى أعطى لهم ولبلادهم الكثير .

ومن طريف مايُذكر ، أنه فى بداية الحرب الأهلية ، انقطع مورد القطن الخام من الولايات الجنوبية الأمريكية إلى مصانع الغزل فى مقاطعة « لانكشاير » بانجلترا ، نتيجة للحصار البحرى الذى فرضه الشمال .. ولم تمض فترة حتى أصبح عمال مصانع الغزل فى مدينة « مانشيستر » والمناطق المحيطة بها بدون عمل .. ومع ذلك فإنهم قد اعتبروا قضية الشمال عادلة ، وعقدت فى مانشيستر اجتماعات عامة لإظهار التأييد للنكولن وسياسته الخاصة بتحرير العبيد ، والإبقاء على النظام الاتحادىّ .. وفى أحد الإجتماعات أُعد خطاب وأرسل إلى لنكولن ، وهو يتضمن تأييداً لأفكاره .

وقد بعث لنكولن بدوره خطاباً إلى عمدة المدينة ، يعبّر فيه عن شعوره بعميق الحزن نظراً للمعاناة التى يقاسيها عمال انجلترا نتيجة لتلك الأزمة ، ويشكرهم فيه على أحاسيسهم الطيبة .





بنيامين فرانكلين

(١٧٠٦- ١٧٩٠)

مخترع ومفكر حر

– بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin ، سياسى وناشر وعالم وكاتب وصحفى وفيلسوف أمريكى ، ويحتل مكانًا مرموقًا بين علماء التاريخ كله .. وذلك من حيث تعدد مواهبه وتنوع كفاءاته .. فقد تمتع فى آن معًا بمواهب العالم البحاثة وكفاءات رجل الدولة والسياسة ، بجانب القدرة على التأليف والكتابة .

ويعتبر من أعظم العلماء الذين أسسوا علم الكهرباء ، وقد استقر فى ولاية فيلادلفيا بعد جولات واسعة فى الخارج ، ثم أنشأ صحيفة أضحت مركزًا لتجمع ثقافى لعدد من المفكرين ، وكان هذاالتجمع نواة لما عُرف باسم الجمعية الفلسفية الأمريكية .. وكان من أشهر كتاب الرسائل فى أمريكا .. وأسهم بدور كبير فى النضال من أجل الاستقلال ، واشترك فى وضع وثيقة إعلان الاستقلال مع توماس جيفرسون – ثالث رؤساء أمريكا – وغيره ، ومثّل بلاده فى فرنسا ، ووقّع الصلح مع بريطانيا ، وشغل مناصب رسمية رفيعة .

وكان قد بدأ حياته فى إحدى مطابع فيلادلفيا ، وبلغ من نجاحه فى إدارة أعمال تلك المطبعة أن أقدم على التقاعد بقصد التفرغ للأبحاث العلمية ، لاسيما فيما يتصل بالكهرباء والبرق .. فقد ثبت له أن البرق شكل من أشكال الكهرباء ، وأراد أن يثبت ذلك للآخرين إثباتًا علميًا لاريبة فيه .

وبدأت تجاربه عام ١٧٤٦ ، وفى إحداها عرَّض يده لشعاع البرق الذى لمع فى السماء ، وذلك بعد أن وقف فى مكانٍ عالٍ ، وكان من الممكن أن يُصعق لولا احتياطات الأمن التى اتخذها ، وقد تيقن بنفسه من أن البرق شكل من أشكال الكهرباء .

وأتبع فرانكلين تجربته تلك بتجارب أخرى حتى توصل إلى اختراعه الذى شهره عالميًا : مانعة الصواعق .. كما أقنعته دراسة الكهرباء التى تتولد بالاحتكاك ، بحدوث « سيال كهربى » يؤدى إلى وجود سطحين أحدهما موجب والآخر سالب ، وتعرف باسم نظرية « السيال الواحد » مقابل نظرية السيالين التى قال بها العالم تشارلز دى فاى وآخرون .. وقد أدت تلك النظرية إلى ابتكار « وعاء فرانكلين » Franklin Pan ، وهو أول مكثف ذى رقائق ، عبارة عن زجاج بين ألواح من رصاص .

واهتم بنيامين كذلك بالحرارة المشعة ، والتوصيل الحرارى ، وديناميكا الموائع « الهيدروديناميكا » ، والأرصاد الجوية .

ومما يذكر من اختراعاته أيضًا « النظارات ذات العدسات المزدوجة » التى تمكِّن المرء من رؤية البعيد والقريب بنظارة واحدة لا نظارتين .. وقد تسنى له تطوير هذا الاختراع أثناء وجوده فى فرنسا وتبعًا للمضايقة التى شعر بها شخصيًا من جرَّاء استعماله نظارتين ، إحداهما لقرب النظر والأخرى لبعده .

وبجانب اختراعاته وأبحاثه ، ومشاركته فى وضع إعلان الاستقلال Declaration of independence فقد شارك أيضًا فى وضع الدستور الاتحادىّ للولايات المتحدة .. وشغل منصب الرئاسة فى ولاية بنسلفانيا (١٧٨٥ – ١٧٨٨) ، ومنصب الممثل الدبلوماسىّ لولايته هذه فى لندن (١٧٦٤ – ١٧٧٥) وأمضى السنوات العشر التى أعقبت تلك المهمة سفيرًا لبلاده فى فرنسا

(١٧٧٦ - ١٧٨٥) .. والجدير بالذكر أنه هو أول من فكر فى تطبيق نظام التوقيت الصيفى ، توفيراً للإضاءة والطاقة التى تستهلكها .

ومن طريف ما يُذكر عن بنيامين فرانكلين أنه كان بين الجمهور الذى احتشد فى باريس عام ١٧٨٣ لمشاهدة الأخوين « مونتجولفييه » ، أول من طار فى بالون ملئ بالهواء الساخن .. وسمع أحد المشاهدين يقول : « وما الفائدة من هذا كله ؟ » .. فرد فرانكلين عليه بتساؤل آخر ، فقال : « وما الفائدة من الطفل الوليد ؟ »

وكان على صلة وثيقة بالفيلسوف الفرنسى « فولتير » ويزوره كثيراً .

وكان محباً للعلم بدرجة كبيرة ، ويعشق الكتب ، قراءةً واقتناءً .

كتب يوماً يصف أقسى مرحلة مر بها فى حياته ، عندما ألحقه والده بمطبعة صغيرة فى مدينة بوسطن ، ليتعلم فيها فن الطباعة ، قال : « كنت صبياً صغيراً جائعاً ، ولكن جوعى للعلم ، كان أشد من الجوع الذى يعصر معدتى » .. ثم يروى قصة أول لقاء له مع الكتب ، يقول : « كنت يومها فى السادسة عشرة من عمرى ، عندما وقع فى يدى كتاب عن النباتيين .. ورحت ألتهم صفحاته التهاماً ، حتى إذا ما وصلت إلي نهايته ، قررت ألا أضع فى فمى بعد اليوم لحم حيوان مذبوح ! » .

وخطرت لى فكرة .. إننى أقيم أنا وأخى فى بيت أسرة ، مقابل مبلغ من المال يتكفل أخى الأكبر بدفعه كله .. فذهبت إليه ، وقلت : لماذا لاتعطينى نصف ما تدفعه لى مقابل إقامتى هنا .. وأنا أدبر عيشى فى مكان آخر .. لقد وفرنا لهم كثيراً منذ

أن قاطعت اللحوم ، ولكنهم لايريدون أن يخفضوا أجر إقامتنا .. ووافق أخى .

وذهبت لكى أعيش فى بيت صديق ، وآكل الأرز والبطاطس المسلوق .. وبعد أسبوع واحد اكتشفت أننى أستطيع أن أوفر نصف المبلغ الذى يدفعه لى أخى اسبوعيا .. وكانت فرحتى كبرى .. لقد استطعت أن أملأ معدتى وأن أملأ رأسى .. وبدأت أنفق كل سنت أدخرته فى شراء الكتب .. ولأول مرة فى حياتى أحسست أننى بدأت أشبع ! ».

وقد وصف الكاتب الانجليزىّ هربرت جورج ويلز بنيامين فرانكلين فقال : « هذا الصبى الفقير الصغير الذى أراد أن يُصلح من نفسه ، فإذا به يكبر وينضج ويُصلح كل شىء من حوله » .

ومما يُذكر جيداً لبنيامين فرانكلين ، أنه قد نبّه شعب الولايات المتحدة الأمريكية إلى خطر اليهود .. وأعلن فى المؤتمر الذى انعقد لإعلان الدستور الأميركى عام ١٧٨٩ أن : « هناك خطر عظيم يهد الولايات المتحدة .. وذلك الخطر هو اليهودية » .

و « حيثما استقر اليهود ، تجدهم يوهنون من عزيمة الشعب ، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف .. لقد كوّنوا حكومة داخل الحكومة .. وحينما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة مالياً كما حدث للبرتغال وأسبانيا » .

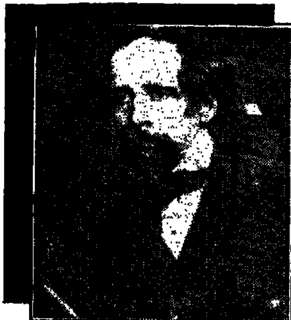
و « إنهم مثل الطفيليات التى لا تعيش على نفسها .. إنهم لا يستطيعون العيش فيما بينهم .. فلابد أن يعيشوا بين الآخرين الذين هم ليسوا من جنسهم » .

و « إذا لم يُمنع اليهود من الهجرة إلى الولايات المتحدة بموجب الدستور .. ففى أقل من مائة سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ، ويغيرون شكل الحكومة التى ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريتنا الفردية » .

و « إنى أحذركم أيها السادة ، إذا لم تمنعوا اليهود من الهجرة إلى أمريكا .. إلى الأبد .. فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم فى قبوركم .. إن عقليتهم تختلف عنا ، حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال ، فإن النمر لا يستطيع أن يغير جلده .

إن اليهود خطر على هذه البلاد .. وإذا سُمح لهم بالدخول إليها فسوف يخربون دستورنا ومنشآتنا .. يجب منعهم من الهجرة بموجب الدستور » .

★ ★ ★



تشارلز ديكنز

(١٨١٢- ١٨٧٠)

أديب البؤس

– كتب يوماً يحدثنا عن سلوكه في مواجهة المشاكل والصعاب ، قال :

« كنت أحمل صنارتي وأذهب إلى شاطئ النهر لأصطاد السمك ، وكنت ألقي بالصنارة إلى الماء ، وأجلس فوق أقرب صخرة ، والمقبض في يدي لا يتحرك ، بينما ينهمك عقلي في تفكير عميق في الظروف والملابسات التي تحيط بالمشكلة التي أبحث لها عن حل ، وتمتد بي الساعات ، وأنا جالس في مكاني لا أتحرك ، وقد تعلقت عيناي بالمياه الساكنة من تحتي ، حتى إذا جاء المساء حملت صنارتي وعدت إلى البيت من حيث جئت .

وقد أجد في نهايتها سمكة صغيرة أو كبيرة ، أو لا أجد فيها شيئاً على الإطلاق ! ، المهم أنني وجدت الحل الذي كنت أبحث عنه للمشكلة التي كانت تؤرقني وتقُض مضجعي .. وربما وجدت مع الحل لمشكلتي أيضاً فكرة جديدة لقصة جديدة أكتبها وأقدمها للناس » .

وكانوا يقولون له وهو يروي لهم قصة البحث عن الحلول لمشاكله في مياه النهر : **« وماذا كان رأي الناس فيك وأنت عائد من الصيد خاوي الوِفاض ؟ » .**

ويرد الكاتب الفيلسوف : « كنت أسمعهم يرددون : ياله من صائد سمك صبور ! .

نعم .. أليس الصبر صفة يعتز بها الرجل ويفخر .. إنها أعظم شيء يتحلى به الإنسان فى مواجهة متاعب الحياه ؟! » .

إنه تشارلز ديكنز ، واحد من أعظم الروائيين الإنجليز إن لم يكن أعظمهم جميعًا ، إذ يتفق النقاد على أنه أكثر من أمتع القراء داخل انجلترا وخارجها ، ويعتبرونه ثانى رجل بين كتّاب بريطانيا بعد شكسبير ، وهو على العكس من السير والترسكوت مثلاً تزداد مكانته مع الأيام رسوخًا وأعماله انتشارًا ، فبالإضافة إلى أنها مازالت مقروءة فى كثير من لغات العالم إلى جانب الإنجليزية ، فقد حُوِّل بعضها إلى مسرحيات وأفلام وعروض موسيقية .

وهو الأديب الذى ترك ثروة أدبية وروائية خالدة على مر الزمن .. فهو صاحب « أوليفر تويست » و « دافيد كوبر فيلد » و « قصة مدينتين » و « أوقات عصيبة » .. وغيرها .

كان عبقريًا بكل ما تعنيه الكلمة .. فهو يتميز عن أقرانه بذكاء لماح .. وهو دءوب على العمل .. وفوق ذلك كان يملك طاقة خلاّقة جبارة .. وقد ساعدت الظروف والأحداث التى مرت به فى حياته على شحذ عبقريته الفطرية ، وعلى توجيه تفكيره وحياته كلها إلى احتراف القصة حيث ظهر نبوغه وعبقريته .

وقد ولد تشارلز جون هوفام ديكنز Charles John Huffam Dickens فى ٧ فبراير عام ١٨١٢ ، فى بلدة « بورت سى » Port Sea ، بالقرب من « بورتسموت » بانجلترا ، وكان والده جون ديكنز يعمل كاتب حسابات فى مكتب مرتبات البحرية البريطانية .. وكان قلقًا لا يستقر له قرار ، ينتقل من عمل

إلى بطالة ، ومن بطالة إلى بطالة .. ولكنه كان دائمًا سعيدًا محبورًا متفائلاً . وبالرغم من أن جد ديكنز وجدته لأبيه كانا خادمين ، إلا أن أباه جون هذا كان يحب العظمة والوجاهة بطبيعته ، كما كان أيضًا مسرفًا لا يستطيع أن يدبر أحواله المالية تدبيرًا حكيمًا ، ومما زاد الأمر سوءًا أن والدة ديكنز هى الأخرى كانت لديها نفس صفات زوجها .

وقد أدى إسراف ديكنز الأب إلى كل العذاب الذى قاساه ديكنز الإبن فى صغره .. وكما يقول المثل : « رُب ضارة نافعة » فإن المأساة التى عاشها تشارلز فى صغره هى التى خلقت منه العبقرى الذى خلده التاريخ .. وهكذا كان إسراف والديه وسوء تدبيرهما ، سببًا فى شقائه طفلاً صغيرًا ، وسببًا فى مجده كاتبًا كبيرًا .

وقد انتقلت الأسرة إلى بلدة « تشاتام » Chatham فى مقاطعة « كِنت » Kent ، وكان ديكنز فى الثالثة من عمره وقتها ، وقد رُقى والده وأصبح موظفًا فى الميناء الحكومى هناك .. ولعدة سنوات سارت الأمور على مايرام .

ولعل هذه المنطقة الجميلة من مقاطعة «كِنت» قد تركت أثرها فى نفسه وهو بعد فى طفولته المبكرة ، فكانت هى مَربى أحلامه ومسقط رأس خياله .

وكان فى منزلهما خادمتان ، كانت إحداهما وتدعى « مارى » تقص عليه كل ليلة قصصًا مرعبة تجعله يعانى أثناء نومه من الكابوس ، حينما يتذكر عقله الباطن هذه القصص المخيفة ! .

وقد ذكر ديكنز فى سيرته الذاتية لمحات كثيرة عن هذه الفترة من حياته ، وكيف كان والده يجعله يقف فوق مائدة المطبخ ليغنى الأغانى المضحكة للضيوف .. وكيف أنه ذات يوم مر هو ووالده أمام منزل ضخم خارج المدينة ،

ووقفا أمام المنزل يتأملانه .. وقال له أبوه : إنه إذا عمل بجد واجتهاد فربما يصبح هذا المنزل ملكًا له فى يوم من الأيام .

والغريب فى الأمر أن ديكنز قد اشترى هذا المنزل بالذات فى أواخر عمره !.

ومن السابعة حتى العاشرة من عمره ، كان ديكنز يقرأ القصص بنهم كبير ، فقد كان يختفى فى غرفة صغيرة فى الدور العلوى بمنزلهم ، ويقرأ قصص دون كيشوت ، وروبنصون كروزو ، وتوم جونز ، وألف ليلة وليلة .. وغيرها .. وكانت هذه القصص وبعدها جولاته فى شوارع لندن هى المدرسة الحقيقية التى تخرج فيها ليصبح كاتبًا عبقريًا .

لم تستقر الحياة الرغدة نسبيًا طويلاً .. فعندما بلغ ديكنز العاشرة من عمره ، نُقل والده إلى لندن ، ولكن قبل أن ينفذ النقل تم بيع أثاث منزلهم ، لسداد الديون المتراكمة عليهم بسبب إسراف الأب والأم .. وترك الوالدان ابنهما ديكنز فى مدرسته حتى جاء موعد عيد الميلاد .. وبعدها أحضراه إلى لندن ، وهناك لم يفكرا فى إرساله مرة أخرى إلى المدرسة .

ولم يكلفا أنفسهما حتى العناية بأمره ، وإنما تركوه وشأنه ، فلم يجد ابن السنوات العشر شيئًا يفعله سوى التجوال فى شوارع لندن على غير هُدى ! .

وبدأت الأمور تسوء شيئًا فشيئًا ، وازدادت الديون تراكمًا على آل ديكنز ، الذين أخذوا يبيعون أثاث البيت قطعة قطعة ، وأخيرًا جاء الدور على كتب ديكنز وقصصه لتباع هى الأخرى ، مما جعله يحس بتعاسة ما بعدها تعاسة . ولكن القدر كان يخفى له شيئًا آخر أشد مرارة وقسوة ، فقد أرسله

أبواه ليعمل فى مصنع للصبغة ، أو للأدهنة السوداء ، وقد أتم وقتها الثانية عشرة من عمره .. وكان لهذه الخطوة تأثير نفسى سىء عليه لم ينمحِ بمرور السنين ، ولا بالنجاح الذى حققه بعد ذلك .

ويصف هو هذا التأثير قائلاً : « **لقد تأثرت طبيعتى كلها من الحزن والتحقير اللذين لحقانى نتيجة للأحداث التى مرت بى ، حتى إننى الآن وأنا شهير وسعيد أنسى أحياناً فى أحلامى أننى رجل ولى زوجة وأطفال ، وأعود بخيالى إلى تلك الأيام البائسة من حياتى** » ! .

وكان العمل فى مصنع الأدهنة السوداء هذا يبدأ فى الثامنة صباحاً لينتهى فى الثامنة مساءً ، ويُمنح العامل ساعة للغداء ، ونصف ساعة لشرب الشاى .

وكان عمال المصنع يطلقون عليه لقب « السيد الصغير » إذ كانوا يشعرون بغرابة وجوده بينهم .. ولكن ديكنز كان فخوراً بنفسه ، وهو يقول عن ذلك : « **لم أقل أبداً لأى رجل أو فتى : كيف جئت وكيف عملت فى المصنع .. وكذلك لم أبد أى إشارة تحمل الأسف لوجودى فى العمل ، أما عن معاناتى النفسية ، فهذا سر لم يعرفه أحد** » .

ولم يمض أسبوعاً على عمله بالمصنع ، حتى أصيب هو وعائلته بكارثة أخرى .. إذ قبض رجال الشرطة على والده لعدم قدرته على سداد ديونه ، وأرسل إلى السجن المخصص للمدينين العاجزين عن السداد .

ويتذكر ديكنز كيف قام بزيارة والده فى السجن ، الذى استقبله بالبكاء وأخذ يحذره من الإسراف ونتائجه ! ويقول له : « يابنى يجب أن

تذكر أنه إذا كان دخل الفرد فى العام ٢٠ جنيهًا وأنفق ١٩ جنيهًا و١٩ شلنًا ، فإنه يكون سعيدًا .. أما إذا أنفق شلنًا أكثر من العشرين جنيهًا ، فإنه قد يصبح تَعِسًا » .

ويبدو أن ديكنز قد استفاد من كلمات والده ، حتى إنه نقلها حرفيًا بعد ذلك بعشرين عامًا فى قصته « دافيد كوبر فيلد » .

وقد أمضى والده ثلاثة أشهر فى السجن ، تمكن خلالها بسبب شخصيته الجذابة أن يتولى رئاسة لجنة خدمات المساجين .. ولكن ابنه ديكنز المسكين كان يعانى معاناة شديدة ، فقد أقام مع سيدة عجوز تُدعى مسز « رويلانس » . وكان يتقاضى مبلغ ستة شلنات أسبوعيًا من مصنع الأدهنة ، يدفع منها أجر سكنه وتكاليف أكله .. وكان بطبيعة الحال يعانى من الجوع ومن معاملة مسز رويلانس السيئة .

وقد قال يصف حالته فى هذه الفترة : « **لقد حاولت ، عبثًا أن أجعل ما أكسبه من النقود يكفينى .. فكنت أقسِّم المبلغ إلى ستة أقسام متساوية ، ثم أضعه فى ستة أظرف ، كل واحد أكتب عليه اسم يوم من أيام الأسبوع .. وكنت أعلم أننى أتجول فى الشوارع وأنا جائع ،! وأنه لولا رحمة الله لأصبحت لصًا أو متشردًا صغيرًا !** » .

ثم بدأت الحياة تبتسم شيئًا ما للعائلة ، فقد توفت جدته لأبيه ، وورث والده مبلغ ٤٥٠ جنيهًا ، استطاع أن يسدد منها بعض ديونه ، وأن يخرج من السجن نتيجة لذلك .

وانتقلت العائلة إلى « كامدِن » ، وتوقع ديكنز أن يأخذه والداه وأن يترك عمله في المصنع ، ولكن خاب أمله ! .

ومرَّت الأيام ، وبالمصادفة كان والده يمر ذات مرة أمام المصنع ، فوجد جمعًا من الناس وقفوا أمام أحد نوافذ المصنع المطلة على الشارع الرئيسيّ ، يتفرجون على الصبية الذين يعملون بالداخل ، ومنهم ديكنز المسكين .. فثارت طبيعة الأب المليئة بالغرور ، واعتقد أن ظهور ابنه أمام الجمهور وكأنه في عرض أشبه بالسيرك يعتبر إهانة شخصية له ، وكتب خطابًا جادًا لصاحب المصنع .. الذى قرر لتوه فصل ابنه دكينز .

وفرح الصبى المسكين بذلك الخلاص الذى لم يكن متوقعًا ، ولكن فرحته لم تدُم ، فقد جزعت الأم من فصل ابنها ، وذهبت إلى صاحب المصنع تبكى وترجو إعادة الابن إلى العمل .

وأمام توسلاتها قبل صاحب المصنع أن يعود ديكنز إلى العمل .. وعادت الأم فرحة تحمل الأنباء لابنها وزوجها .. وجزع الابن داخل نفسه .. ولكن الأب رفض أن يعود ديكنز إلى المصنع ، وأصر على أن يذهب إلى المدرسة ! .

لقد تأثر ديكنز من موقف أمه هذا ، وذكر فى مجال تقييم طفولته :

« إننى لم أنسَ أبدًا ، ولا أستطيع أن أنسى أبدًا ، ولن أنسى أبدًا ، أن أمى كانت متحمسة لإرسالى مرة أخرى إلى المصنع » ! .

وفى المدرسة ، تغيَّرت حياة ديكنز كثيرًا ، وبدا كأن تجربة مصنع الأدهنة المريرة لم يعد لها وجود داخل نفس التلميذ الصغير فى أكاديمية ولنجتون Wellington House Academy فقد كان يبدو لزملائه صبيًا مرحًا طروبًا حسن

الهندام ، لايمت بأية صلة لذلك الصبى الذى كان يعمل فى مصنع الأدهنة ويجوب الشوارع بعد ذلك وهو جائع ، أشبه بالمتشردين منه بالصبية الذين لهم عائلات ترعاهم .

وفى سن الخامسة عشرة ترك المدرسة ، ليبدأ العمل صبيًا فى مكتب أحد المحامين .

ولكن الصبى الطموح لم يعجبه هذا العمل ، فبدأ يتطلع إلى عمل آخر .. ويبدو أن القدر كان فى عونه ، ففى ذلك الوقت كان أبوه قد تعلم الاختزال واستطاع أن يحصل على وظيفة مندوب برلمانى لصحيفة Pritish Press ، وكان يتقاضى حوالى ١٥ جنيهًا أسبوعيًا عن عمله هذا .. واتخذ ديكنز من نجاح أبيه فى عمله الجديد مثالاً له ، فأقبل على تعلم الاختزال .. وبعد ١٨ شهرًا استطاع أن يجيد هذا الفن وأن يترك عمله فى مكتب المحامى ليصبح كاتب إختزال محترف .. وكان لايزال أصغر من أن يصبح مندوبًا برلمانيًا لصحيفة من الصحف كأبيه ، فذهب ليعمل فى إحدى المحاكم ، وخلال عمله هذا اكتسب معرفة بخبايا القانون وقواعده .. وقد ساعدته هذه المعرفة كثيرًا فى إتقان النواحى القانونية فى قصصه .

وفى ذلك الوقت كان ديكنز مغرمًا بالتمثيل .. فكان يكثر من الذهاب إلى المسارح وقاعات الموسيقى ، وتملكته الرغبة فى أن يصبح ممثلاً محترفًا .. وفعلاً تقدم للإمتحان فى إحدى المسارح ، ولكن القدر والحظ تدخلا مرة أخرى فى عونه دون أن يدرى ، فيصاب بنوبة برد شديدة فى اليوم المحدد لإجراء امتحان التمثيل .. ويفشل فى تحقيق رغبته .

ولم يمر عام على تفكيره فى احتراف التمثيل إلاّ والفتى الصغير ديكنز يحقق نجاحًا آخر ليصبح أصغر مندوب صحفىّ فى برلمان انجلترا .. وقد سجل

المناقشات التى دارت فى مجلس العموم البريطانى حول وثيقة الإصلاح التى صدرت فى عام ١٨٣٢ ، ويقفز دخله الأسبوعى من عمله الصحفىّ إلى ٢٥ جنيهاً .

ثم عُين ديكنز فى صحيفة « the Sun » وبعدها فى « Morning Chronicle » وأخذ يكتب اسكتشات أو تعليقات ، يوضحها بالرسم فنان معروف اسمه جورج كوركشانك ، وكان ديكنز يكتبها تحت اسم مستعار هو« بوز » Boz (اسم أصغر إخوته) ، وظهر كتابه الأول بعنوان « صور وصفية » Sketcher ، الذى استقبل بحماس ، وبدأ اسمه يلمع فى الأوساط الأدبية ، ثم ذاعت شهرته كثيراً مع كتابه القصص « أوراق نادى بيكويك » Papers of the Pickwick Club ، الذى كان يظن أنه كتاب تافه ، ولكنه هو الذى فتح له باب الشهرة على مصراعيه أمام ديكنز ، فقد جعله يفكر فى شخصية المستر بيكويك Mr. Pickwick ، تلك الشخصية الروائية التى حازت إعجاب كل القراء فى مختلف أنحاء بريطانيا ، وجعلت من الفتى الذى لم يزد عمره عن الرابعة والعشرين من أشهر شخصيات بريطانيا فى ذلك الوقت .

وقد صارت هذة الكوميديا الصاخبة على كل لسان إلى حد أن أحد الأطباء المعروفين كان يقرأها وهو فى عربته أثناء قيامه بزيارة المرضى .. كما أن أحد القضاة المشهورين كان يقرأها وهو على منصة الحكم ! .

وكان ديكنز قد وقع فى الحب وهو فى الثامنة عشرة من عمره .. ولكن الفتاة التى أحبها هجرته بعد أن كانت قد وعدته بالزواج ، نتيجة لمعارضة أهلها زواجها من هذا الفتى الفقير الذى يمارس الاختزال ! .

وبعد مرور ست سنوات ، وكان ديكنز قد بدأ يصعد سلم الشهرة بخطوات ثابتة واثقة ، تزوج من « كاترين هوجارت » Chtherine Hogarth ، وهى الإبنة الكبرى لجورج هوجارت رئيس تحرير جريدة Evening chonicle .

ولم يكن الزواج عن حب .. ولكنها أنجبت له عشرة أطفال فى خلال ١٥ عامًا ! ، توفى أكثرهم .

وقد جاءت أخت زوجته وتدعى « مارى » لتعيش معهم ، غير أنها ماتت فجأة ، فحزن ديكنز عليها كثيرًا ، ثم جاءت أختها الأخرى الأصغر «**جورجينا**» لتعيش معهم وتساعد شقيقتها فى تربية الأولاد .

ثم تركت زوجته منزل الزوجية بعد أن أحست أن زواجها من ديكنز قد أصبح فاشلاً ! .. بينما استمرت شقيقتها جورجينا تعيش فى البيت مع الأولاد حتى وفاته .

ومع كل كتاب جديد لديكنز ، كانت شهرته تزداد حتى إنه أصبح قبل وفاته أشهر رجل فى بريطانيا فى ذلك الوقت .

وبين عامى ١٨٣٦ و ١٨٧٠ كتب أربع عشرة رواية منها : « **نيكولاس نيكولبى** » (١٨٣٩) ، و « **مارتن تشزويت** » (١٨٤٤) ، و « **أوليفر تويست** » (١٨٣٧) ، و « **دافيد كوبرفيلد** » (١٨٥٠) ، و « **دومبى وولده** » (١٨٤٨) ، و « **المنزل الكئيب** » (١٨٥٣) ، و « **أوقات عصيبة** » (١٨٥٤) ، و « **دوريت الصغيرة** » (١٨٥٧) ، و « **قصة مدينتين** » (١٨٥٨) و « **آمال كبار** » (١٨٦١) ، و « **أغنية عيد الميلاد** » (١٨٤٣) .

وتعتبر قصته « دافيد كوبر فيلد » سيرة ذاتية لحياته ، وهى درة أعماله كلها .

لم يكن قراء ديكنز ينظرون إليه على أنه أعظم كاتب قصة فى بلادهم ، ولكنهم كانوا ينظرون إليه على أنه هو ضمير الأمة الذى يتكلم باسم الملايين .

وقد كان غزير الإنتاج ، فقد كان يخرج قصة تلو الأخرى ، وفى نفس الوقت يقوم بتحرير بعض المجلات وإخراج المسرحيات .

كما قام برحلات ثقافية فى دول عديدة .. حيث زار أمريكا عام ١٨٤٠ ، وانتقد معاملة الأميركيين للزنوج والعبيد ، وكره الحياة الصناعية الملوثة وما جلبت فى أذيالها من آلام ، وظهر ذلك فى كتاباته .. كما زار إيطاليا عام ١٨٤٤ ، واستقر فى « جنوا » لمدة عامين ، كتب خلالها قصتين .

ولم يكن نشاطه يقتصر على الفكر والكتابة فقط ، بل امتد أيضاً إلى النشاط الجسمانى والرياضى ، فحتى أواسط عمره كان يمشى ٣٠ ميلاً من لندن إلى منزله « جادز هيل » Gad's Hill فى ليلة واحدة .

وفى السادسة والأربعين من عمره ، وهو فى أوج مجده ، بدأ ديكنز مرحلة جديدة من مراحل نشاطه .. فقد قام بقراءة أعماله أو فقرات منها أمام جمهور كبير فى بريطانيا وأمريكا .. وكان عندما يقرأ هذة الأعمال ، يقوم بالاندماج فى تمثيل كل شخصية من الشخصيات التى قام برسمها .. وكان تأثير هذه القراءات على الجمهور أشبه بالتنويم المغناطيسى ! .

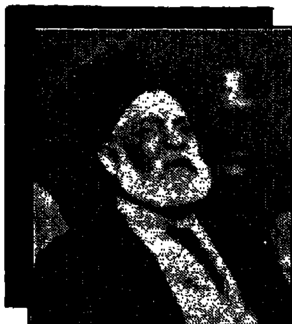
غير أن هذه القراءات ، والخطب التى كان يلقيها فى الحفلات التى تقام فى لندن – قد أثرت على صحته كثيراً .. وقد أنشأ صحيفتين نالتا شعبية كبيرة ، وأسس جريدة وطنية هى « دايلى نيوز » Daily News ، وفى يوم ٨ يونيو عام ١٨٧٠ ، استمر ديكنز فى الكتابة طوال اليوم فى الكوخ الصغير الملحق بمنزله ، وفى المساء عاد إلى المنزل وقام بكتابة بعض الخطابات .. وأثناء تناوله طعام العشاء ، تبينت أخت زوجته أنه مريض ، فعزم على الذهاب إلى لندن على الفور .. وعندما حاول القيام من مقعده ، سقط مغشياً عليه .. ولم يعد

الكاتب العبقريّ إلى رشده مرة ثانية .. وانتقل إلى الحياة الأخرى فى مساء اليوم التالى ، ٩ يونيو .. ولم يتجاوز الثامنة والخمسين .

وهكذا توفى هذا الروائى الإنجليزى العظيم .. الذى كان بارعًا فى خلق الإثارة ، والفكاهة الانتقادية ، وأجواء الرعب ، وحالات الفقر والبؤس الشديد . وفضلاً عن ذلك ، كان باستطاعته أن يستدر دموع قرائه بالسهولة نفسها التى يحملهم فيها على الضحك .

ومن جهة أخرى ، بدا ديكنز فى أدبه مُصلحًا اجتماعيًا ، يكشف عن المظالم التى تحدث داخل المصانع ، وينتقد الأوضاع الاقتصادية وفقدان العدالة الاجتماعية .. كما استطاع أن يميز بمهارة بين الضعيف والقوى ، واعترف بأن الفقير يمكن أن يصبح شرّيرًا ، بقدر ما يمكن للرجل الطيب أن يصبح غنيًا .. ويمكن القول بأن ديكنز استطاع أن يكشف الستار عن حقيقة الظروف التى كانت تحيا فيها الطبقات العاملة فى أواسط القرن التّاسع عشر .





أحمد عرابى

(١٨٤١- ١٩١١)

بطل الثورة العرابية

- أجمع المؤرخون على أن الثورة العُرابية كانت حركة مصرية خالصة ، تهدف إلى صالح الشعب والحرص على استقلال البلاد بجُرأة منقطعة النظير ، فى وقت تكالبت فيه على الشعب المصرى كل أسباب الضّعف من جهل وفقر وظلم الحكام والأتراك وطغيانهم .. ولعل التفاف المصريين حول بطل الثورة فى مواجهة تردّى الخديوى وتنكره للوطنيين ، يفسر إحساسهم بكم المهانة من جرّاء التدخل الأجنبىّ فى شئونهم ، والاعتداء على استقلالهم وكرامتهم ، على الرغم من تسليمهم بالتبعية التركية وعدم مقاومتها .

ولذلك ثاروا فى وجه الظلم والظالمين فى أعقاب صيحة الجهاد التى أطلقها بطل الثورة لطرد الغزاة الأجانب ، ويحسب لهذا الرجل بصمته الواضحة فى التاريخ القومى لمصر كأول ضابط مصرى فلاّح ، رفع صوته فى شجاعة وجرأة ضد الحكام من الأتراك والشراكسة ، وأول زعيم فى تاريخ مصر الحديث طالب بالدستور والبرلمان حتى ارتبطت كل الحركات الوطنية المصرية فيما بعد بالمطالبة بالشورى والبرلمان .

أما زعيم هذه الثورة التى نُسبت إليه فهو أحمد عرابى .

ولد فى ٣١ مارس عام ١٨٤١ ، فى قرية « هرية رزنة » بمحافظة الشرقية ، من عائلة بدوية استوطنت القرية منذ جاءها جده لأبيه ، وكان والده شيخًا للقرية .

تعلم مبادئ القراءة والكتابة فى كتَّاب القرية ، ثم انتقل إلى الأزهر عام ١٨٤٩ ، ومكث به أربع سنوات حفظ خلالها القرآن ، وتلقى بعض أصول اللغة والفقه والتفسير .

دخل الجندية فى ديسمبر ١٨٥٤ ، فى عهد سعيد ، الذى كان قد ألغى الإعفاء من التجنيد بالنسبة لأولاد مشايخ البلاد والقرى .

ظل يتدرج فى مراتب الجيش من درجة بلوك أمين ثم ملازم ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، ثم رُقى إلى رتبتى نقيب ورائد ثم إلى رتبة مقدم عام ١٨٦٠ ، وإلى رتبة عقيد فى العام نفسه .

وترجع سرعة ترقيته إلى عطف الخديوى سعيد عليه ، والذى صحبه معه إلى المدينة المنورة فى رحلة للحج عام ١٨٦٠ .

اكتسبت شخصيته من أصله البدوى خصال الأنفة والتطلع إلى الزعامة والحماسة الوطنية ، وساعده على ذلك أيضًا حب سعيد له وتقريبه إليه .

كان يصحب الوالى كثيرًا فى رحلاته وحفلاته ، وكان يهدى إليه بعض المؤلفات مثل كتاب تاريخ نابليون بونابرت ، بالعربية ، الذى أفاد منه كثيرًا وانفعل بالأحداث التى تضمنها ، ولكن من خلال مبادئه الإسلامية .

بدأ يتَّجه بعد ذلك إلى مبدأ « مصر للمصريين » وذلك بوحى من قراءاته للتاريخ المصرى القديم ، وما سمعه من الخديوى سعيد من تمجيد للماضى

مصر ، ووجوب حمايتها من أطماع الأجانب ، ولما توفى سعيد كان عرابى قد نبتت فى نفسه بنور وعى جديد فيه معنى الوطنية المصرية والاعتداد بالنفس .

وفى عهد إسماعيل ، شعر عرابى بكثير من الظلم سواء فى الجيش أو خارجه .. وكان الخديوى وبطانته المؤلفة من الأتراك والشركس وأبناء المماليك والأروام والأجانب يسيطرون على جميع خيرات البلاد ومقدراتها ، والشعب من هؤلاء فى مكان التبعية لخدمة أغراضهم الإقطاعية والسيطرة التامة على التجارة وكل اقتصاديات البلاد .

كما أحسَّ عرابى بالعنصرية فى الجيش ، إذ كانت السيادة للأتراك والشراكسة دون الفلاَّحين ضباطًا وجنودًا ، ومن هنا أخذ يدرك الفساد فى الحكم وطغيان إسماعيل .

كان عرابى يأبى الضَّيم ، صلب الرأى فيما يراه حقًا ، ممَّا أغضب المسئولين ، فتصيدوا له اتهامًا بأنه يتردد فى طاعة الأوامر ، وحوكم عسكريًا بوحى من وزير الحربية وقتها .. « إسماعيل سليم باشا » بسبب خلاف بينه وبين اللواء « خسرو باشا » الشركسىّ ، ولما استأنف القاضى الحكم بحبسه ٢١ يومًا ، ألغاه المجلس العسكرى الأعلى ، وعندئذ ثارت ثائرة وزير الحربية الذى سعى إلى الخديوى إسماعيل لفصل عرابى من الجيش ، وتم له ما أراد .

وظل مبعدًا عن الجيش ثلاث سنوات ، وأحس بمدى الظلم وتأصلت فى نفسه روح الكراهية لرؤساء الجيش من الأتراك والشراكسة .. ولما أعيد إلى الجيش بعد رجاء وإلحاح ، أخذ يدعو الضباط المصريين إلى الالتفاف حوله ، والسخط على تميز الأتراك والشراكسة وأبناء المماليك فى الجيش .

وفى عام ١٨٧٥ وفى عهد إسماعيل ، بدأت دعوة عرابى الوطنية التى لم تقتصر على ضباط الجيش الأحرار ، بل اتصلت ببعض العناصر القومية التى أحسَّت بالظلم وما يعانيه الشعب من ضنك وسوء حال ، ثم ما تبع ذلك من سماح الخديوى للتدخل الأجنبى بدعوى تحصيل الديون التى أسرف فى الحصول عليها ، ثم أنشأ « صندوق الدين » الذى أخذ مظهر التسلط الأجنبىّ وتدخل انجلترا وفرنسا فى شئون مصر المالية ، حيث تم تعيين وزيرين أجنبيين فى وزارة « نوبار باشا » الموالى للأجانب .

تزامنت دعوة عرابى لضباط الجيش الأحرار مع الدعوة التى تصدى لها « جمال الدين الأفغانى » ، وهى إيقاظ روح الثورة فى نفوس المصريين ، وكان من دعاتها « عبد الله نديم » خطيب الثورة العرابية ، ومبعوثها فى الريف والأقاليم .

وبدأت الجمعية السرِّية التى تكونت من عدد من ضبَّاط الجيش ، بزعامة عرابى ، تمارس نشاطها سراً ، ولكنَّها كانت تتحين الفرص لتنفيذ أهدافها جهراً .

وشارك الوطنيون فى مجلس شورى النوَّاب ، والصحافة التى أنشأها بعض المثقفين ، فى تنبيه الرأى العام ، وجعلت الخديوى « توفيق » الذى تولى الحكم بعد أبيه إسماعيل - يحس بالروح الوطنية الثائرة ، فأخذ يهادنها تارة ، ويقاومها تارة أخرى بوزيره الأول « رياض باشا » ..

كما أنشأ لفيف من ضباط الجيش المخلصين ، ومعهم بعض الأعيان والملاَّك ، جمعية « حلوان » السرية ، للقضاء على عهد رياض والنفوذ الأجنبىّ الخطير .

وبدأت الشكوى جهراً والاحتجاج فى مايو عام ١٨٨٠ ، حين تقدَّم عرابى على رأس بعض الضباط مطالبين ناظر الحربية بإعطائهم مرتباتهم المتأخّرة ، كما طالبه بعدم تفضيل الضباط الأتراك والشراكسة على المصريين بدافع الاستعلاء العنصرى .

ولما لم يستجب وزير الحربية « عثمان رفقى باشا » لهذه الطلبات ، قدموا إلى رياض باشا ناظر النظار - أى رئيس الوزراء - عريضة يطلبون فيها عزل وزير الحربية ، مما أثار ثائرة الوزير الذى دبر أسلوبًا خسيسًا للقبض على عرابى وزميليه « على فهمى وعبد العال حلمى » ، فى ٣١ يناير عام ١٨٨١ ، بأن دعاهم للمشاركة فى ترتيبات الاحتفال بزفاف الأميرة « جميلة » شقيقة الخديوى توفيق ، ولما أحس ثلاثتهم بالغدر فى تلك الدعوة اتفقوا مع « محمد عبيد » وبعض الضباط بمراقبة الحالة إلا أن عثمان رفقى وزير الحربية قام باعتقالهم ؛ فما كان من محمد عبيد ومعه فرقة من الحرس ، إلا أن قاموا بمهاجمة ثكنات قصر النيل ، وفك اعتقال عرابى وزميليه ، وفر وزير الحربية من إحدى النوافذ !.

ثم انضمت قوات أخرى من الجيش إلى قوات الحرس بقيادة محمد عبيد ، وأتجهوا جميعًا إلى ميدان عابدين ، مما أثار الرعب فى نفس الخديوى وحاشيته ، وأشار « محمود سامى البارودى » - الشاعر المعروف - وكان وزيراً للأوقاف على عهد الخديوى بإجابة طلبات الجيش ، واستقال عثمان رفقى ، وحل محله البارودى فى وزارة الحربية ، فكان نصيراً للثورة ومؤيداً لطلبات الجيش .

كان ذلك أول نصر لعرابى ، ولم يقتصر أثره على الجيش ، بل امتد إلى الأمة بأسرها .. غير أن الخديوى عاد إلى سياسته الأولى ، وطلب من البارودى تقديم استقالته ، وقصر الوظائف القيادية على الأتراك والشراكسة ، وحرمان أنصار عرابى منها ، فضلاً عن تفريق وحدات الجيش خشية تجمعها .

وفى ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ ، تزعم عرابى عدداً كبيراً من الضباط فى مظاهرة عسكرية ومن خلفه فرق الجيش المرابطة بالقاهرة ، وتقدم بطلبات الأمة إلى الخديوى ، وهى عزل رياض باشا ، وتشكيل مجلس شورى النواب ، وزيادة عدد أفراد الجيش .

وكانت المناقشة بينه وبين الخديوى على الملأ ، وفى حضور نائب القنصل الإنجليزى والمراقب المالى الإنجليزى ، وقد قال توفيق إنه خديوى ويفعل ما يشاء ، وقال لعرابى : ما أنتم إلا عبيد إحساناتنا ، فرد عليه عرابى بحزم « نحن لسنا عبيداً .. ولن نورث بعد اليوم » .

وقد انتهت المواجهة بإجابة عرابى إلى طلباته ، واستقالت وزارة رياض الطاغية ، وحل محله « شريف باشا » ، بموافقة عرابى الذى تدخل فى تشكيل الوزارة ، وكان ذلك فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٨١ .

وكانت بحق وزارة الأمة التى أنشأت المحاكم الأهلية فى ١٧ نوفمبر من نفس العام ، وأنجزت كثيراً من الإصلاحات ، وانتخب مجلس شورى النواب من الأعيان ، وابتهج الناس بصدور الدستور .

وكانت تلك الفترة القصيرة هى التى عاشتها مصر فى عهد النور والكرامة ، ومارست سلطاتها الشرعية بوساطة نوابها وقيادة جيشها فى أيدى أبنائها .

وقد حاول بعض الضباط الموالين للخديوى اغتيال عرابى ، ولكن المؤامرة اكتشفت وحوكموا .

كما أرسلت كل من انجلترا وفرنسا أسطولها إلى شواطئ الإسكندرية ، بحجة مؤازرة الخديوى توفيق ، وطلب مندوبهما فى مذكرة تهديدية استقالة وزارة شريف باشا .. فاستقالت بالفعل فى مايو ١٨٨٢ .

فأصدر علماء الأزهر فتوى بعدم إطاعة السلطان إذا أذعن للأوربيين ، وتدخل مندوب سلطان تركيا « السلطان عبد الحميد » ، للتوفيق بين عرابى والخديوى ، وتم ذلك شكلاً ، وألّف الوزارة الجديدة « إسماعيل راغب » التى قبلها الخديوى مكرهًا ، وبعد أن هدده قنصلا ألمانيا والنمسا بعزله إذا رفض إصدار مرسوم تلك الوزارة .

وقد أغاظ الخديوى سيطرة عرابى على الموقف وزعامته الشعبية الرائعة ، وميل سلطان تركيا لمؤازرته ، وكذلك العالم الإسلامى بأثره .. واشتد غيظه ، وبالغ فى التودد إلى مندوب بريطانيا وفرح بوجود الأسطول الإنجليزى فى مياه الإسكندرية .

وعمل مندوب بريطانيا على التحرش ، ورأى الأسطول الإنجليزى وجوب تسلم قلاع الإسكندرية لترميم طوابيها ، وأبلغ مصر ذلك فى صورة إنذار رفضه عرابى فى إصرار .

وفى ١١ يوليو عام ١٨٨٢ ، ضرب الأسطول الإنجليزى الإسكندرية ، واتجه الخديوى توفيق إلى بريطانيا صراحةً لحمايته ، وانضم إليه بعض الأتراك والشراكسة .

ورأت إنجلترا أن تضع العالم الإسلامى الثائر عليها أمام الأمر الواقع ، فأقامتها حربًا فردية بينها وبين عرابى ، واستعانت فى حربها بالخديعة والرشوة والعناصر المصرية المؤازرة للخديوى ، فتفوقت على عرابى وهزمته فى موقعة التل الكبير .

وتم القبض على عرابى ، وحكم عليه بالنفى فى ٢٧ ديسمبر عام ١٨٨٢ هو وزملائه السبعة إلى جزيرة « سيلان » ، حيث قضى بها ١٩ عامًا منفيًا ، وعاد

إلى مصر بعد العفو الذى أصدره الخديوى عباس عنه ، فى الأول من أكتوبر عام ١٩٠١ .

عاش عرابى بعد ذلك مشغولاً فى تدبير شئون عائلته ، حتى تُوُفى فى أكتوبر عام ١٩١١ .

ولم تنسَ مصر أنه الرجل الذى أيقظ الشعور الوطنى ، ونبه المصريين إلى حقهم فى حياة حرة أبية كريمة .

★ ★ ★

المصـــــادر

★ خمسون شخصية مصرية وشخصية : شكرى القاضى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

★ ثلاثة روّاد من المهجر : نادرة جميل السرّاج ، اقرأ ، دار المعارف .

★ عمالقة وروّاد : أنور حجازى ، الدار القومية للطباعة والنشر .

★ أعلام النهضة الحديثة : الحلقة الأولى ، دار الحمراء ، بيروت .

★ نوابغ الشباب : أحمد قاسم جودة ، كتاب الهلال ، دار الهلال .

★ قصة حياتى : مُعجم الفلاسفة المُيسَّر فرانسوا أويرال وچورج سـعد ، دار الحداثة ، بيروت .

★ عباقرة رحلوا زهورًا : فايز فرح ، دار الشعب .

★ دائرة معارف الشعب : الجزء الرابع ، دار الشعب .

★ تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه : عبد الحليم منتصر ، دار المعارف .

★★★


مطابع
ت : ٩٣٢٧٠٦



موسوعة المشاهير

المعرفة مفتاح الحقيقة ، وبدونها لا يرجى ولا يمكن تحقيق أى تقدم أو إنجاز ، ولأن طريق المعرفة والتفكير العلمى والثقافة المستنيرة ، صعب وشاق ، كان لزاماً على من يرتاده أن يتسلح بالصبر والمثابرة .

واستمراراً لسياسة دار الأمين فى الأخذ بيد الشباب ، المتعطشين للمعرفة ، الباحثين عن أسباب التفوق العلمى ، نقدم العدد الثالث من موسوعة المشاهير ، رجالاً ونساءً ، من بلدان مختلفة ، وثقافات متباينة ، وفترات زمنية متباعدة ، ومجالات بحث واجتهادات إنسانية نافعة ، ولكن القاسم المشترك بينهم جميعاً ، هو حب العلم والمعرفة ، والإصرار على النجاح ، والأخذ بالأسباب ، والمثابرة ، وحسن اختيار القدوة .

ومن بين من نقدمهم فى هذا العدد : الفارابى ، الإسكندر الأكبر ، محمد على باشا ، جين أوستن ، محمد فريد ، جبران خليل جبران ، بنيامين فرانكلين ، أحمد عرابى ، إبراهام لنكولن ... وغيرهم .. نموذجاً يُحتذى لأبنائنا ولكل من ينشد المجد والشهرة والخلود .. له ولوطنه .

والله من وراء القصد ...

الناشر

DAR AL AMEEN — طبع ★ نشر ★ توزيع — دار الأمين

٨ شارع أبو المعالى (خلف مسرح البالون) العجوزة ت : ٣٤٧٣٦٩١

١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم

١٠ شارع بستان الدكة (من شارع الألفى) القاهرة ت : ٩٣٢٧٠٦